رواية
هبة جمال أسعد
عندما قتلوا الربيع

الإهداء

كنت أحاول دوماً أن أشير بأني هنا لكن لم يرني أحد، أنا بشرٌ على هيئة ظل
كلهم مؤقتون لا أحد يستحق.

حقوق النشر محفوظة

أصبحت أيامي متشابهة، تضاءل الشغف و تكاد أن تموت اللهفة، لم أصل إلى ما أريد إلا بعد معاناة جعلتني أفقد لذة الحصول عليه، كان للأقربين إلى قلبي النصيب الأكبر من الخيبة، بعضهم جعلني أشك بأن حريتي فضلٌ منهم و أن الله لم يخلقني حرة لأرسم بريشة أيامي حياتي، نسوا ياء الملكية خاصتي و نسبوها لهم، لم يكن ذنبهم فقط بل كنتُ أنا من خشيتُ على قلوبهم من تمردي فردعتُ نفسي و نحتها كما يحبون آذيتُ روحي لإرضائهم و آذوني لرغبتي التي كبتها خوفاً من أن أحزنهم.

تمنيت لو أستطيع أن أكف عن التدخل في حياة هذه الشخصيات البائسة و أكفُ عن إحيائها لكن كما قال لي فادي.... حشورة.

(الطموح قاتل عندما يولد في بيئة غير داعمة، أنا ضحية أحلامي، أقدمُ قربان أيام حياتي لها..... تُراها تتحقق؟؟؟؟).

سوريا 1995

التضحية، كان يرى كل أحلامه على هيئة وجه بريئ ذو خدود ممتلئة، ينظرُ إلى بيلا ذات العشر سنوات كما لو أنه يرى روحه تجلسُ بجواره، كانت تلهو بتركيب المكعبات، تبتسمُ لهُ فيردُ لها بابتسامة تدمجُ بين الفرح و المعاناة، كان الياس رجلاً حزيناً،مهزوماً، ترك المدينة التي كان يسكنُ فيها منذ حوالي ثمانية أعوام و نقل سكنه إلى إحدى القرى، واضعاً الحد لكل علاقة اجتماعية من الممكن أن تتركَ أثراً سيئاً في نفسه أو في نفس ابنته، بل إن ابنته هي الأهم، أخذ عهداً على نفسه أن يكرس عمرهُ لتربيتها و أن لا يحضرَ لها زوجة أبٍ تسيئ معاملتها، نظر إلى خيط الشمس الذي تسلل عبر النافذة و تنهد بعمق كما لو أنهُ سيفجر، اقتربت منهُ بيلا فحملها واضعاً إياها بين أحضانه ثم طبع قبلةً على جبينها: أبي، هل صحيح بأن والدتي تحترقُ في الجحيم؟.

انتقلت جميع الدماء التي في جسده إلى رأسه و هو يخفي خيبتهُ: لا إن والدتكِ في السماء تُحبنا و تنظرُ إلينا بين الحين و الآخر، من أخبركِ بهذه الأكاذيب؟.

بيلا: عمتي داليدا.

*****

في أحد المقاهي في مدينة لندن حيثُ كانت الموسيقى الغربية الهادئة تلاطفُ الأعماق و قطرات المطر الناعمة بدأت تهطلُ في الخارج، كانت الشابة السورية ليال تجلسُ مع الشاب السوري حيث كانا في بريطانيا بغرض الدراسة، فبعد انتهاء علاقتهما سابقاً طلبت ليال لقاءه ، جلست و هي تنكس رأسها ثم رفعته ببطئ و الدموع تلألأت في عينيها (لا أدرِ لمَ كل هذا الجفاء، أنا حامل،أشعر بأنه الوقت المناسب لهذا، أرغبُ في أن أكونَ أُماً، إن كنتُ قد أخطأت بشيئ.....)، قاطع كلماتها و نهضَ بغضب (تمزحين صحيح؟؟،من اخبركِ أني أنوي الزواج منكِ!!، لا أحبُ هذا المزاح من الأفضل أن تتخلصي من هذا الشيئ أو تجدي لهُ أباً آخر).

أمسكتهُ من زنده و هي تحاولُ نيل تعاطفهِ (سنكون عائلة جميلة، أرجوك فكر في الأمر بجدية، أرجوك).

أبعد يدها عنهُ بقوة و غادر دون أن يلتفت، عادت إلى منزلها البسيط الذي تحيطُ بهِ حديقةٌ صغيرة لتجد صديقها اللبناني مالك ينتظرُ قدومها، لم يكن منها إلى أن ارتمت في أحضانهِ و هي تشكو لهُ قسوة نضال و خيبة ظنها به.

*****

في سوريا كان الطفلُ آدم ذو العشر سنوات يتسولُ في الشوارع و هو يرتدي ثياباً قديمة و يمسكُ بيده صندوقاً كرتونياً يحوي علب محارم صغيرة مُترجياً المارة أن يقوموا بالشراء منه، كان يعلمُ بأنهُ إن عاد إلى المنزل و هو فارغ الجيب فإن زوج والدته حسان ربما يضربهُ و سوف يجعلهُ ينام بلا طعام كما يفعلُ عادةً، اتجه نحو امرأة ليطلبَ منها الشراء لكنه عندما رأى ابنتها التي في مثل عمرهِ تنظرُ نحوهُ و تبتسم، خجلَ من نفسه و غيَّرَ طريقه مُتجهاً نحو إحدى الحدائق حيثُ وقف ينظرُ إلى الأطفال الذين يلعبون كرة القدم و في نظراته رغبةٌ جامحةٌ في اللعب، أشارَ إليه أحد الأطفال ليأتي و يلعبَ معهم فوضعَّ الصندوق الذي في يده أسفل شجرة قريبة و ركضَ نحوهم بسعادة.

مرَّ الوقت سريعاً، كان آدم يمارسُ حقه الطبيعي كأي طفل لكنه ما إن تذكر بأن هذا الحق ليس لأمثاله، و أن عليه أن يبيع كي يتمكن من النوم ممتلئ البطن في منزله حتى نظرَّ مسرعاً نحو الشجرة التي ترك تحتها الصندوق، ارتجفَّ الدمُ في عروقه عندما لم يجده، و أخَّذ يبحثُ في أرجاء الحديقة و الدموع تكتسحُ وجهه دون فائدة.

بدأ الظلام يسود، قرعَ آدم باب المنزل و ما إن فتحت لهُ والدتهُ عتاب حتى مدَّ إليها بالنقود القليلة التي استطاع شحذها من المارة، نظرت إلى يديه متسائلةً عن الصندوق، أجاب و هو يتلعثم بالكلمات من خوفه(تركتهُ قرب الشجرة، أردتُ أن ألعب قليلاً مع باقي الأطفال، سُرِق....) بدأت بتوبيخه و تعنيفه نفسياً، دخلَّ إلى المنزل وهو ينظرُ إلى الأرض خشيةَ أن تلتقي عينيه بعيني حسان، لكنَّ حسان كان قد خرج من غرفتهِ و هو يمسكُ السوط بعد أن سمع حديث آدم مع والدتهِ حول سرقة الصندوق (تُريدُ اللعب أيُها القذر!!!، تُريدُ اللعب؟؟؟!!!،حسناً سنلعبُ سوياً حتى يتآكل جسدُكَ الكريه) ، بدأ يضربهُ بقوة بينما يطلبُ منهُ المغفرة ثم أغلقَ باب أحدِ الغرف عليه و طلب من والدتهِ عدم إدخال الطعام أو الشراب.

كانَّ الجو بارداً و كان آدم لا يزالُ متكوراً على نفسه في تلك الغرفة المظلمة الخالية من التدفئة، فتحت والدتهُ الباب عليه بهدوء و دخلت و هي تمسكُ صحناً صغيراً من البرغل و كأساً من الماء (هيّا كُل بسرعة قبل أن يشعرَّ بغيابي، ما كان عليك أن تلعب، لقد أرسلك للعمل و ليس للهو، فتىً مهمل.....).

****

بريطانيا 1998

مرَّت ثلاثُ سنوات، لم تلتق ليال بنضال منذ آخر لقاء، لم تعد تعرفُ شيئاً عن أخباره، كانت تعيشُ براحة مع مالك بعد أن تزوجا خصوصاً لأنه كان بمثابة أب حنون لرفيف بعد رفض نضال لهما، لم تعد الفتاة الطائشة التي لا تدرِ ما تريد

و صلت لسن الاستقرار و أصبحت العائلة تعني لها السعادة و الأمان بعد أن كانت لا تعني لها شيئ ، أما نضال فقد عاد للتواصل مع كريمة و هي الفتاة التي كان يحبها قبل سفره و التي كانت قد خطبت لشاب أخر بضغطٍ من أهلها و بعد أن تمَّ فسخ الخطوبة بسبب عدم الاتفاق عادت تدريجياً علاقة الحب القديمة التي كانت تجمعهما.

في أحد الأيام كان نضال يراقبُ ابنتهُ رفيف من على بعد دون أن ينتبه لهُ أحد، كان يشعرُ بدمائه التي تجري في عروقها، كان يرغبُ في أن يندفعَّ نحوها بقوة ليعانقها، كانت رفيف تركضُ خلف الفراشات في حديقة المنزل و بجوارها ليال تشربُ القهوة، سمعت ليال رنين هاتفها في الداخل و توجهت للإجابة، لم يكن من نضال إلى أن دخلَّ الحديقة مسرعاً و حملَّ رفيف و خرجَ يركضُ مبتعداً بها.

طالت مكالمة ليال و حين خرجت و لم تجد رفيف جُنَّ جنونه، أخذت تبحثُ عنها في الجوار ثم اتصلت بمالك(ابنتي يا مالك، ابنتي، ضاعت رفيف، ضاعت ولا أستطيعُ إيجادها) جاء مسرعاً حاول أن يُهون عليها (لا بأس سنجدُها، لا تخافي، اهدأي).

لم يستطع نضال أن يعود لدياره و يترك قطعةً منهُ في بلدٍ غريب، مع امرأة تتصرفُ كالغرب و لا تملكُ من الشرقية إلا الأصول، لم يفكر يوماً بليال بشكلٍ جدي لكنهُ لم يستطع تجاهل وجود رفيف، لم يحتمل فكرة أن يترك ذاك الوجه الصغير المشرق كالشمس و الشعر البني الملتف على شكل حلقات.

في الحين الذي كانت فيه ليال تتابع مع الشرطة البحث كالمجنونة عن ابنتها ، كان نضال يدفعُ أموال طائلة لتزييف جوازات السفر و الأوراق اللازمة ليتمكن من أخذ رفيف معهُ إلى سوريا.

*****

لم يعد آدم يحتملُ قسوة حسان،أصبح طفلاً بقلب رجل و ليس أي رجل، عزمَ على إيجاد طريقة للتخلص منه ،و وضع حدٍ لتسلطه عليه، كان الظلام دامساً في الخارج و الجميعُ نيام وقف في المطبخ و أمسك سكين طبخ حاد و نظرَ إليها بشغف و هو يحدثُ نفسه (ستكونين أجمل حين تخترقين عُنقه، سيكون منظرُ الدمِ السائل رائعاً، ليس هكذا يا آدم ليس بهذه الطريقة..)، أعاد السكين إلى مكانها و تراجع عن ما أوشك على القياب به ، إلى أن جاء أحدُ الأيام حيثُ ذهب حسان ليجلب صهريج الماء ليملأ الخزان الذي على السطح لم يكن سطح المنزل مسوّرًا فهو منزل بسيط في حي عشوائي أشبه بلوحات الأبيض و الأسود، صعد آدم و هو يحملُ عبوةً مملوئة بالزيت و قام بسكبها على الأرض بالجهة القريبة من فوهة الخزان ثم غادر المنزل.

وصلَ حسان إلى السطح و هو يحملُ أنبوب تعبئة المياه، و ما إن اقترب من الفوهةٍ ليضع الأنبوب فيها حتى انزلق و سقطَ للأسفل.

*****

لبنان تموز عام 2006

كان الدخانُ يتشاجرُ في السماء ، حتى أن جدران الأبنية السكنية تعانقت من الخوف و انهال بعضُها ساجداً ، كأنهُ مشهدٌ من مشاهد القيامة، كان الناس يركضون بحثاً عن ملاذٍ آمن بينما يقومُ الممرضون بنقلِ الجرحى.

كان الشاب العشريني حسن ذو البشرة البيضاء و الشعر الأسود الذي كاد أن يتلون بالأبيض من الغبار المنتشر، يركضُ بين الحطام ثُمَّ يختبئُ خلف أحد الجدران الهاوية و يقوم بتصوير المناظر القاسية التي يخلفها القصف الإسرائيلي بكاميرته المعلقة حول عنقة.

رأى والدتهُ تركضُ في أحد الشوارع و هي ترتدي ثياب المنزل، ركض نحوها خائفاً عليها (ما الذي تفعلينهُ هُنا يا أمي، عودي إلى المنزل بسرعة).

-جئتُ أبحثُ عنك، لن نبق هنا سنغادر الوضعُ يزداد سوءاً، جميعُ الجيران سيغادرون.

-اذهبي معهم سأتبعكم لاحقاً، هيّا سأوصلك للمنزل.

نظرت إليه عازمة و هي تكاد تفقدُ الوعي مما يحدثُ حولهما(لن أغادر من دونك، سأموت هُنا إذاً).

****

كان الجو حافلاً في أحد البارات في سوريا، أصبحت بيلا في بداية العشرينات شابة فاتنة بعينين زرقاوتين و جسد ممتلئ بطريقة جذابة و متناسقة، كانت ترقصُ برفقة جواد بينما تجلسُ سيلينا تشربُ النبيذ و تنظرُ إليهما، غمزت سيلينا جواد و هي تشربُ النبيذ و ابتسمت بخبث و كأنهما يحيكان مؤامرة.

انتهت الأغنية التي يرقصان عليها، استأذنت بيلا للذهاب إلى الحمام و فتوجهُ جواد نحو سيلينا ثم أخذُ الكأس من يدها و شربُ منه.

سيلينا: يبدو حبكَ في عينيها، هذا سيسهلُ الأمر، عليك أن تُسرع فيما اتفقنا عليه، نحنُ بحاجةٍ إلى المال.

وضع جواد الكأس من يده و أشعل سيجارته و هو ينظرُ إلى عيني سيلينا بغرور: لا تقلقي، هي أيامٌ معدودة، (يكملُ بسخرية) هل يعلمُ آدم أنكِ تعشقين العمل في هذا النوع من الممنوعات.

شربت سيلين من الكأس بنشوة بينما أتت بيلا إليهما بعجلة و أخذت حقيبتها و هي تحدثهما: لقد تأخرت، بدأ وقت مناوبتي.

****

كانت السماء سوداء و كأن النجوم قد انطفأت و أعلنت الحداد على أرواح الشهداء، كانت الحافلات تقلُ اللاجئين اللبنانيين إلى الداخل السوري و في أحد الحافلات يجلسُ حسن يبللُ وجه والدته الجالسة بجواره بالماء و هي تكاد تفقدُ الوعي، يتحدثُ بحنان و الدموع تملأ عينيه : اصبري أمي سنصلُ قريباً.

ثُمَّ وضع كف يدهُ على ذراعه المصابة المغطاة بقميصه الأسود و هو يحاولُ أن يخفي ألمه عن والدته.

كان الأطباء و الممرضون في أحد المشافي السورية يسارعون لإسعاف الجرحى ، خرجت بيلا من أحد الغرف مسرعة و هي ترتدي مريولها.

وقفُ حسن بجوار السرير الموجودة عليه والدته و هي تكاد أن تنام، نظرُ الطبيب إليه و أخبرهُ بأن حالة والدته مستقرة و أنها متوعكة بسبب انخفاض السكر في الدم بسبب الخوف و الإرهاق.

خرجُ من الغرفة و هو يضعُ يدهُ على ذراعه، ثم أغمي عليه و سقطُ أرضاً.

و حين فتح عينيه و جد نفسهُ على السرير و بيلا تبتسمُ له بود.

بيلا: لقد نزفتَ كثيراً، كيف تشعرُ الآن؟.

ينظرُ حسن إلى ملامحها الطفولية الناعمة: بخير، أين الكاميرا التي كانت معي؟.

بيلا: لا تقلق إنها في قسم الأمانات، هل أنت مصور؟.

حسن: أنا صحفي، تخرجت من كلية الإعلام حديثاً.

طلبت بيلا بأسلوبها اللطيف منه الاسترخاء و ذهبت لإحضار الكاميرا ، بينما شرد حسن بحزن و هو يتذكرُ الناس الذين فقدهم، فُتحَ البا، دخلت أم حسن و توجهت نحوه بلهفة للاطمئنان إليه (يا إلهي، كيف حالك يا بني؟، هل أنت بخير، هل يؤلمك الجرح) دخلت بيلا و هي تمسك الكامير، بقيت بالقرب من الباب غير راغبة في مقاطعتهم بعد أن بدأت أم حسن بالبكاء و هي تتحدث: أخبرني الطبيب أننا سنغادر المشفى بعد غد، أين سنذهبُ بأنفسنا؟؟؟، ماذا لو طالت الحرب؟، هل سنفترش الطرقات و الأماكن العامة، يا إلهي ساعدنا، ساعدنا يارب.

حسن: سيكون كل شيئ بخير بإذن الله لا تقلقي، و ما ضاقت إلا لتُفرج.

اقتربت منهما بيلا بتردد، وضعت الكاميرا بالقرب من السرير و نظرت إليهما: يمكنكما الذهاب معي.

لتفتت أم حسن إليها و قد لمع الأمل في عينها فتكملُ بيلا: أسكن في قرية قريبة من هُنا مع والدي، نقيمُ لوحدنا و منزلنا كبير يمكنكم الأقامة في الطابق العلوي إن شئتم فهو فارغ، والدي سيكون مسرور بهذا.

نظرت أم حسن إلى حسن الذي بدا مُحتاراً و كأنها تطلبُ رأيه.

******

كانت رفيف تعيشُ في سوريا مع والدها وزوجة والدها (كريمة)، بعد أن أخبر نضال الجميع أن رفيف هي ابنتهُ من زوجة أجنبية و أن هذه الزوجة توفيت أثناء ولادة رفيف، كانت طفلة شقية تحب المزاح و اللعب، لم تكن كريمة تحبُها خصوصاً أنها لم تستطع أن تنجب و بقيت رفيف هي الابنة المدللة و الوحيدة لنضال، كانت مجبورة على أن تعاملها بطريقة حسنة فهي تعلمُ أن نضال ربما يتخلى عنها من أجلها، على الرغم من الحب الكبير و العلاقة التي كانت بينهما حتى

قبل أن يسافر نضال للدراسة إلا أن رفيف كانت كنزهُ الثمين الذي يرفضُ من أي أحدٍ الاقتراب منه أو التدخل فيه.

انتهت كريمة من تنظيف الأطباق و هي تتحدثُ لنفسها(يظننـي خادمة لهُ ولابنته، تريدين عصير البرتقال أيتها القردة، أكرهكِ أكرهكِ أكرهكِ).

قامت بإعداد العصير ثُمَّ بصقت في كأس رفيف قبل أن تقدمهُ لها.

******

كانت الشمس قد أرسلت خيوطها بين أشجار التوت و التين التي كان قد زرعها (لياس) والد بيلا في حديقة المنزل، خرجت بيلا من باب المنزل بقمة النشاط و ما إن رآها والدها حتى مسح دموعهُ بسرعة و أخفى عنها رسالةً كان يقرأُها دون أن تنتبه متظاهراً بأنهُ بخير، طبعت قبلةً على خده و غادرت.

توجهت نحو سيارة جواد التي تنتظرها في أحد الطرقات الفارغة و قلبها يخفقُ بسرعة فرحاً برؤيته، صعدت إلى السيارة ثم توجها إلى منزله.

دخلت بيلا المنزل بحماس و دخلُ خلفها جواد نظرت إلى الصالة بفضول: أين والدتُك.

جواد: أظنها تشربُ القهوة كعادتها عند جارتنا في الطابق العلوي.

بيلا: ألم تخبرها أني قادمة للتعرف إليها؟.

جواد: لا أحببت أن أبقيها مفاجئة، سأعد القهوة لنا ريثما تأتي و إذا تأخرت سأذهب و أحضرها.

جلست بيلا في الصالة مرتبكة، بينما دخل جواد إلى المطبخ و عندما انتهى من تحضير القهوة و سكبها أخرج من جيبه كيساً صغيراً شفافا به حبوب صغيرة و وضع حبةً منه في أحد الفناجين.

****

كان القلق يبدو على وجه أم حسن و هي جالسة مع حسن في غرفته في المشفى ،ينتظران بيلا حتى تأتي إليهما و تأخذهما إلى منزلها، كانت الأفكار تتصارع في عقلها حول المستقبل المجهول الذي ينتظرهما ريثما تنتهي الحرب و يعودا إلى الوطن.

أم حسن: أيعقلُ أنها قد غيرت رأيها أو أن والدها لم يوافق على استضافتنا!!.

حسن: كل غائب وله عذر، و حتى إن حدث هذا سنتدبرُ أمرنا لا تقلقي .

أم حسن: الساعة ستصبحُ الثانية ظهراً لقد أخبرتنا أنها ستأتي في الساعة الثانية عشر.

حسن: سننتظرُ حتى الثانية و النصف إن لم تأتي سنذهب.

أم حسن(تبكي): إلى أين؟؟؟ إلى أين؟؟؟ .

******

كان جواد مستلقياً على السرير و هو يدخنُ سيجارتهُ كشخصٍ منتصرٍ حقق منالهِ بينما تجلسُ بيلا بجواره ترتدي حذاءها مصدومة و الدموع تنزلُ من عينيها بحرقة، التفتت إليه قبل مغادرتها و تحدثت بغصة: لماذا فعلت بي هذا؟؟؟لماذا كذبت؟؟؟، كيف حدث هذا!!! ما الذي وضعتهُ لي في القهوة؟ .

اقترب منها و نظر إلى عينيها بقوة: ما هذه الخزعبلات ما الذي سأضعهُ لكِ؟؟، كل ما في الأمر أنكِ أنت من أرادت هذا، هذه رغبتكِ، رغبتكِ إنتِ؟ .

مسحت بيلا دموعها المتكاثرة على خديها: و لماذا تحدثني بهذه النبرة القاسية، لماذا تنظرُ لي بهذه الطريقة المهينة.

لملمت نفسها و هي تشعرُ بالذل، غادرت بينما بقي هو في مكانه ينظرُ لها بعدم اكتراث، لقد فقدت أغلى ما لديها مع شخص بدأت تكتشفُ بأنهُ لم يستحق منها حتى نظرة عابرة.

****

ضاقت الأرض بحسن و والدته، توجها نحو باب المشفى بعد أن فقدا الأمل في قدوم بيلا،

أم حسن: لقد خدعتنا تلك الفتاة، منحتنا أملاً زائفا، لو أنها لم تدعونا إلى منزلها لكُنا تدبرنا أمرنا و بحثنا عن مكان قبل أن تنتهي مدة بقائنا في المشفى.

حسن: يكفي أمي، لا تقلقي، ألا تثقين بي!!! لستُ طفلاً صغيراً أستطيع تدبر أمرنا

نزلت بيلا من سيارة الأجرة فرأت كل من حسن و والدتهِ يمشيان في أحد الطرقات الفرعية ركضت خلفهما و أوقفتهما :

أعتذرُ بشدة على التأخير، حدث أمرٌ طارئ و لم أستطع القدوم على الوقت.

أم حسن: نحن لا نريد إحراجك يا ابنتي إن جد شيئ و ليس بإمكانك أن تأخذينا معك، سنتدبرُ أمرنا.

تحدثتُ بيلا بينما نظر حسن إلى بياض عينيها المحمر من البكاء، كان يتساءل في نفسه عن السبب الذي أودى بها لهذا الحال : لا أبداً، لا يوجد إحراج (تبتسم بحزن) هَيَّأ لنذهب.

*****

حل المساء كانت كريمة تنظرُ إلى نفسها في المرآة، لقد نسيت أنوثتها، طوال ثلاثة عشر عاماً و هي تشعرُ بأنها مجرد أداة في هذا المنزل، تخدمُ فتاة كانت ابنة المرأة التي نافستها على قلب نضال يومًا، أخرجت ثوباً متعرٍ، أرادت أن تستذكر مفاتنها المنسية، ارتدتهُ و وضعت مساحيق التجميل بشكلٍ مبالغ و ختمتها بأحمر الشفاه الأحمر.

أخذت تتأملُ نفسها بغرور، مستاءة من عدم تقدير زوجها لما لديها، طُرِقَ الباب فتوجهت لفتحه، كان الطارق (مروان)، صديق زوجها، تفاجئ عندما رآها بهذه الهيئة التي لم يرها فيها من قبل: سيدة كريمة، ما هذا الجمال، تبدين غاية في الأناقة.

لاحظت في عينيه إعجاباًواضحاً(أخذ نضال رفيف إلى مدينة الألعاب يمكننا أن نسهر سوياً ريثما يعودا، تفضل بالدخول)

أرادت أن تنال اهتمامهُ و رغبت أن حظى بأي شعور اتجاهها من قبل أي رجلٍ كان إلا نضال، علمت أن نضال و رفيف لن يعودا حتى منتصف الليل و أن لديها ما يكفي من الوقت لتكسب ما تريده.

*****

كان كل من حسن ووالدته يتبادلان الأحاديث مع الياس و هم يشربون عصير التوت الطبيعي في حديقة المنزل.

أم حسن: سيد الياس أليس لديكم أقارب في هذه القرية؟.

أجاب و هو يخشى أن تطرح عليه المزيد من الأسئلة و يجبر على الحديث في الأشياء التي طالما تجاهل الحديث بشأنها (كانت قرية والدتي في الماضي، أقاربي يفضلون الإقامة في المدينة ، احبُ طبيعة القُرى لذا أفضلُ العيش هُنا كما أشعرُ بأن أهل القرية هُم أهلي) وضع كأس العصير و نهض تجنباً لأسئلة أخرى (سأذهب لإيقاظ بيلا فقد نامت منذُ وقتٍ طويل).

غادر الياس بينما نظر حسن إلى انعكاسه على زجاج المكتبة التي أمامهُ و سرح شعره بيديه مترقباً قدوم بيلا.

كانت بيلا مستلقية في غرفتها المظلمة و هي تدفنُ رأسها تحت وسادتها و تبكي، شعرت بأن ما حدث قد دمرَّ مستقبلها و أن فرحها و حياتها توقفا عند اللحظة التي سبقت دخولها إلى منزل جواد ، و أن ما مِن شيئ سيعالج ما حصل إلا زواجها منه ، كانت تعلمُ بأنه أمرٌ أشبه بالمستحيل فهي مسيحية و هو مسلم بالإضافة لثقتها بأن جواد لن يقاوم للحصول عليها بعد تغير معاملته معها على الفور بعد ما حدث، طُرِقَ الباب فتظاهرت بالنوم، فتحت عينيها رافضة طلب والدها بالنهوض، أخذ الياس يقربُ شفتيه من جبينها ليدس حرارتها كي يطمئن بأنها ليست مريضة ثم خرج محترماً رغبتها في الحصول على المزيد من الراحة.

****

بعد مرور بضعة أيام، صعدت بيلا الدرج إلى الطابق العلوي متوجهةً إلى غرفة حسن، وقفت أمام بابها المفتوح و هي تنتظرُ حسن ريثما ينتهي من أداء صلاته، كانت تتأملُه كيف يصلي دون أن يكترث بكل شيئ حولهُ كما لو كان و حيداً و ما إن انتهى حتى انتبه لوجودها: لماذا تقفين في الخارج، أدخلي.

بيلا: الغذاء جاهز و هما لم يعودا من الأرض حتى الآن ما رأيك أن نأخذه و نتناول الطعام هناك.

توجهُ حسن نحوها: لم تكوني هكهذا،في أول لقاء لنا لم يكن حالك هكذا؟، ما سرُ هذا الحزن الذي يغزو عينيكِ.

حاولت بيلا أن تتصرف كعادتها: لا شيئ، لستُ حزينة، سأنتظرك في الأسفل.

أمسكها من يدها قبل ذهابها و غرق في عينيها و كأنهُ يشهدُ فيهما اندماجاً للأرض و السماء: اعتبريني صديق أو حتى صديقة إن أردتِ.

تهربت بيلا من الحديث عن ما يزعجها (لا تشغل بالك ليس هناك ما يستحقُ الكلام هيَّا قبل أن يبرد الطعام) نزلت برفقته إلى الطابق السفلي بينما ينظرُ إليها بين الحين و الآخر، لعلها تغيرُ رأيها و تفتحُ قلبها لهُ.

****

نزلت بيلا من الحافلة متوجهةً إلى منزل جواد و قبل وصولها رأت سيلينا تفتحُ باب منزله بالمفتاح و تدخلُ، تابعت طريقها إلى باب المنزل ببطء و الخوف من الصدمة القادمة إليها يتملكها متسائلة في نفسها عن سبب امتلاك سيلينا للمفتاح.

طرقت باب المنزل بيديها المرتجفتين بتردد فنهضُ جواد :لقد أحضروا العشاء.

فتح الباب و ابتسم بخبث عند رؤيته لبيلا التي بالكاد تتمالك نفسها من البكاء: لماذا لا تجيبني ، ماذا تفعلُ سيلينا في الداخل و لماذا مفتاح المنزل معها.

جواد(يبتسم): أدخلي لنعقد اتفاق كي نتفادى الفضيحة.

بيلا(بخوف): ماذا تقصد؟؟.

دخلت بيلا بخوف ، فوقفت سيلينا و هي تنظرُ إلى بيلا بقوة متجاهلة أسئلتها حول سبب تواجدها و امتلاكها للمفتاح.

جلست بيلا بتردد بعد إصرارهما على ذلك ثم جلس جواد بجوارها وشغل حاسوبه المحمول على فيديو قام بتصويره عندما كان مع بيلا في غرفة النوم .

نزلت الدموع من عينيها وأدارت وجهها رافضةً النظر بينما يتحدثُ جواد بسخرية: كما ترين إن وجهك ظاهرٌ بكل وضوح على الكاميرا.

بيلا(متوسلة): لماذا تفعلُ هذا بي ، بماذا أذيتك، قم بحذفه أرجوك، أرجوك أن تحذفه.

جواد: إن كنت تريدين أن لا ينشر هذا الفيديو عليكي أن تفعلي ما أطلبهُ منكِ، كُل ما أريده.

بيلا: ماذا تعني؟؟.

سليلينا: يكفيكِ تظاهراً بالبراءة ستفعلين ما يريدهُ و سيكون لك جزء من ما سنجنيه.

تقفُ بيلا و تبكي بهستيرية و هي تصرخ: حتى أنتِ!!! لقد ظننتكِ صديقتي، وثقتُ به بسبب مديحك المتواصل له، ألهذا قمتي بتعريفي عليه؟ أردتما استغلالي منذ البداية ، لا أصدق ، لا أصدق.

كان المنزل هادئاً لم يبق إلا حسن جالساً في الصالة مستيقظاً ينظرُ إلى الساعة التي أصبحت الثانية عشر بعد منتصف الليل و ينتظرُ قدوم بيلا، فتحت بيلا باب المنزل و دخلت ثم جلست على الأرض تبكي بحرقة دون أن تنتبه لوجود حسن، اقترب نحوها ليساعدها على النهوض (بيلا هل أنتِ بخير).

حاولت أن تتمالك نفسه بعد رؤيته لها لكن الخيبة كانت أقوى من صبرها نهضت بمساعدته و اجتاحتها الدموع مجدداً دون أن تقدر على مقاومتها فضمها حسن إليه بحنية (اهدأي، اهدأي).

دخلُ معها إلى غرفتها و جلسُ بجوراها و هو يمسحُ دموعها ، نظرت إليه (أنا خائفة ، يجب أن أموت ، يجب أن أقتل نفسي).

أمسكُ وجهها بلطف و هو ينظرُ إليها مطولاً (لا تفكري هكذا أبد ، انظري إلى والدك كم يحبك ، ما الذي سيحدثُ لهُ لو أصابكِ مكروه ، أنتِ كلُ حياته ، المرضى الذين في المشفى من سيهونُ عليهم ، إن هذا الوجه الملائكي و القلب الصغير لا يستحقُ أن يؤذى أو يتحطم).

بيلا: ما سيحدثُ لوالدي إن مت أهون مما سيحدثُ لهُ لو بقيتُ حية.

حسن: غداً تنتهي الحرب و أعود إلى ديارى ، سأصبحُ ذكرى ، شخصاً عابراً حملينـي همومكِ و سأعبرُ بها من هنا و أنساها ، تحدثـي لـي كما لو كنتِ تتحدثين لنفسك، ثقي بي.

بيلا: خذلونـي جميعاً ، لما علـي أن أثق بك!!!.

حسن(يمسحُ دموعها): أنا مدينٌ لك إننا هنا بفضلك،كما أنك تعتنين بي و تداوين جرحـي و أنا لا أجرح من يداويني .

بيلا(تبكي): لقد اتفق مع صديقتـي، وضع لـي شيئاً في القهوة ، لم أكن أعـي ما حدث ، إنه يبتزنـي.

حسن: اهدأي و أخبرينـي ما القصة منذ البداية و سأساعدك(يمسكُ يدها) أعدك.

******

طرق آدم باب المنزل بقوة فتحت له والدتهُ عتاب و بدأت تعاتبه (كنتُ أعلمُ أنك الطارق، رائحة المنكر سبقتك إلى المنزل، متى ستعودُ إلى رشدك؟).

آدم(بسخرية): منكر!!! كفي عن هذا أيتها الأم الحنونة، أشعرُ بأنـي أدخلُ منزل أحد الصالحين، كلانا نعلمُ الرائحة النتنة التـي تفوح منكِ و من زوجك، تريدين أن أعودَّ إلى رشدي!، ما هو رشدي؟، أن أرتدي ثياب بالية و أشحذُ في الطرقات.

عتاب: يا بنـي....

آدم: لا تقولـي بنـي، اصمتـي رأسـي يؤلمنـي.

دخلَّ و ألقى التحية مستهزئاً بحسان الذي يجلسُ على كرسيه المتحرك منذُ وقع من على السطح، ثُمَّ ضربَ والدتهُ برزمة من المال بعد أن كانت تطلبُ منهُ أن يكف عن السخرية من حسان (هذا المال، ثمنٌ لنصائحك الغير مُجدية).

*****

كان جواد يجلسُ على الأريكة يتناوبُ هو و سيلينا على سيجارة الحشيش التي في يده و هما يبدوان بقمة المتعة، يتصلُ بها آدم فتنظرُ إلى هاتفها بعدم اكتراثُ دون أن تجيب بينما تنفثُ الدخان من فمها(أتركني و شأني آدم)، يطرقُ الباب فينهضُ بكسل ثم يفتحه ليتلقى لكمة على وجهه دون أن يميز وجه القارع، ينهالُ حسن عليه بالضرب و اللكمات ثم يرى سيلينا متوجهة نحوهما و هي تحملُ بيدها سكيناً، يخرجُ حسن المسدس الذي أخفاه حول خصره و يقوم بتوجيهه نحوهما (إياكما و التحرك ستفعلان كل ما سوف أطلبه و إلا سأقتلكما).

يحضرُ جواد الأقراص المخزن عليها مقطع الفيديو الخاص بهِ و ببيلا و كاميرته الخاصة و يعطيها لحسن ، يقوم حسن بأخذ قرص التخزين الخاص بكميرة جواد ثم تحطيمها بقدمه ، و يستخدم الكاميرا الخاصة به التي يعلقها حول عنقه و يطلب من جواد و سيلينا أن يأخذا وضعيات مهينة متشبهين بالحيوانات (قِف على أطرافك الأربعة، مُدَّ لسانك إلى الأمام، اممم هكذا جميل) ثم يقوم بتصويرهما مهدداً إياهما بفضح هذه الصور في حال حاولا التعرض لبيلا مجدداً.

كانت النجوم تلمعُ في السماء و الجو هادئ على عكس حال بيلا التي كانت تتجولُ في حديقة المنزل و الأفكار تضجُ في عقلها و هي قلقة تنتظرُ قدوم حسن .

يأتي حسن فتتوجهُ نحوه بلهفة، أعاد لها مسدس والدها و قام بإعطائها الأقراص و شريحة التخزين (قومي بإتلافهم، لن يتعرض لكِ أحدٌ بعد الآن).

بيلا: هل أنت متأكد؟.

حسن: ثقي بي، لن يجرأ أحدٌ على الاقتراب منكِ مجدداً، و الآن فلنحذف هذه الحادثة من عقولنا و لتعودي كما كنتِ و كأن شيئاً لم يحدث.

تنظرُ بيلا إلى عيني حسن بامتنان، تعانقه شاكرة ثم تنتبه إلى ابتلال قميصه بالدماء السائلة من جرحه، يدخلان إلى غرفته و تطلبُ منه أن يخلع قميصهُ لتبدأ بتطبيب الجرح، ترفعُ خصل شعرها النازلة على وجهها كل قليل إلى خلف أذنها بينما يتأملها هو بإعجاب ثم أصبح هو من يرفعُ لها الخصل عندما تنزلُ مجدداً و هو يلامسهم بإصابعه بلطف، ابتسمت بخجل(ها قد انتهينا).

*****

كانت الأيام تمر و في كلِ يوم كان حب بيلا يزداد عاماً في قلب حسن، كان محباً لكل تفاصيلها، أصبح ينظرُ لها كما لو كانت أمنية، لم تكن بيلا أفضل حالاً منه، كانت تنكرُ حبها لهُ عن ذاتها لاختلاف الديانة و بشكل خاص لأنه يعرفُ قصتها مع جواد، لكن لم تستطع المقاومة أكثر، في أحد الليالي بعد أن نام الجميع ذهب للتحدثِ معها في غرفتها، كانت جالسةً و كأنها بركانٌ من الدموع يحاولُ أن لا ينفجر، جلس بجوارها (انتهت الحرب، هي أيامٌ قليلةٌ و سنغادر، ألا ترغبين في قول شيئ!!! ، أما عني فأنا أحبك ، لم أستطع إلا أن أحبك ، أعلمُ أن الأمر صعب وجب علي أن أضع حداً لقلبي منذ البداية، لكن القلب إن هوى لا يبصرُ الحدود).

اقتربت بيلا منهُ و عناقتهُ بحميمية (لا أريدك أن تذهب ، لا أريدك أن تبتعد) .

حسن: هل لديكِ أي شعور اتجاهي؟.

بيلا: لا، أقصد ليس لا، لكنني لا أستطيع ، نحنُ مختلفان، بالإضافة لأنك تعلم ما حدث معي في السابق.

يتحدثُ حسن بغضب: لا يهمني السابق، أنا أؤمن بالحاضر لا بالماضي ، كفي عن الحديث عن ما مضى.

تنظرُ إلي عينيه وهي تمررُ أصابعها على تقاطيع وجهه (أحبك، أحبك كثيراً)، اقترب منها بهدوء و قبلها بوله قبلة ستبقى يتيمة لسنوات طويلة.

خرجت أم حسن من غرفتها نحو المطبخ لتشرب الماء، فرأت حسن يخرج من غرفة بيلا، توجهتُ نحوهُ و حدثته بغضب: ماذا تفعلُ في غرفتها في هذه الساعة المتأخرة، هل هكذا ستكافئ الرجل الذي فتح لنا منزله و أكرمنا.

حسن: لا تخطئين فهمي....

أم حسن: لستُ عمياء ، رأيتُ نظراتكما، كل أفعالكما تشيرُ لوجود علاقة بينكما، هل قمت بالاقتراب منها، هل أذيت الفتاة التي ساعدتنا؟.

حسن: لم أؤذِها و لن أفعل ذلك، أحبها و أريد الزواج منها، كما أن العم لياس يحبني، لذا سيوافق.

حسن: هل جننت؟؟؟، تريد أن تسود وجه الرجل المسكين أمام أهل القرية، يحبك لكن ليس كزوجٍ لابنته إنه موضوع حساس لا يتحمل الطيش، أغلق عليه و انسى الأمر، الحب يجبُ أن يوأد أحياناً.

حسن: لكن.....

أم حسن: من دون لكن، لم يستضفنا الرجل هنا لنتعدى على حدودنا في هذا المنزل.

توجه حسن إلى غرفته بائساً و هو على ثقة بأن أمه محقة في كل كلمة قالتها و أن الرجل الطيب الياس لا يستحق إلا الخير.

****

كان الصباح حزيناً وقفت بيلا بجوار والدها لتوديع كلٍّ من حسن ووالدته، التفت حسن قبل خروجه و ابتسم لها بحزن، في ذاك اليوم شعرت بيلا أن شيئاً من روحها قد رافق حسن إلى الأبد و أن قطعة منها أعلنت انشقاقها عنها و التصقت به ، غزى الروتين أيامها من بعده، كانت تعيش بلا أي هدفٍ، لم تكن الحياة قد زارتها إلى خلال المرات القليلة التي التقت بها حسن خلال العشر سنين التي تلت مغادرته.

أصبحت في بداية الثلاثينيات حيث زادها هذا العمرُ جمالاً و أنوثة و زاد سوريا ألماً و حزناً بسبب اندلاع الحرب فيها، أما حسن ازداد رجولةً ووسامة، أصبح صحفياً متخصص في كتابة مقالات حول الحالات الإنسانية الصعبة التي تحتاج إلى مساعدة، كان يرفضُ الزواج و يفضلُ ليالي السهر الطويلة و هو يتحدثُ إلى بيلا مكالمة فيديو على أن يتزوج من أخرى أثار هذا الأمر استياء والدته فقامت بتهديده (سأغضبُ عليك إن لم تتزوج، بيلا لم تخلق لتكون لك و لا أنت لها ، إن كنت حقاً تحبها أكمل في طريقك و دعها تكملُ في طريقها إنها فتاة ستقضي على مستقبلها قبل أن تقضي على مستقبلك).

أمضى ليالٍ عديدة و هو لا يستطيعُ النوم حتى الصباح و كأنهُ يعاقبُ نفسه مُسبقاً على القرار الذي سيأخذه.

****

أصبحت رفيف في السنة الأولى من الجامعة، صبية وسيمة بعينين عميقتين كشهد العسل و شعر بني ناعم مُلتف على شكل حلقات ، كانت عفويتها طاغية على تعاملها، تتصرفُ كالأطفال، تضحكُ كثيراً و تبكي كثيراً، أنهت دوامها في الجامعة الخاصة(كلية الصيدلة) و خرجت مع صديقتها بيسان لتجد إياد ينتظرها في سيارته، كان إياد شابٌ ثلاثيني من عائلة ثريةٍ مرموقة، صعدت إلى السيارة و بدأت بالكلام كعادتها، كانت إذا التقت شخصاً عزيزاً لا تكفُ عن الكلام، نظرت إلى نفسها في المرآة (هل أبدو جميلة؟، يا إلهي أشعرُ بأن وجهي متعب، لقد نمت في الرابعة صباحاً و استيقظتُ في السابعة، آه كم أنا نشطة، كم أنتِ قوية و جبارة يا رفيف، فليحفظكِ الله لوالدكِ و لكل من يحبك، لماذا أنت صامت، قُل آمين، ألا

ترغبُ في أن يحفظني الله لك!! ، أنكَ لا تحبني، اكتشفتُ أمرك، هيَّا اعترف، أريدُ أن أسمع تصريحاً شفوياً).

إياد(باستياء): رفيف كُفي عن الكلام، إنك تتحدثين ما يفوق المئة كلمة في الدقيقة.

كانت هذه عادة إياد حين تلقاه، يطغى الحماسُ عليها في الحديث معهُ و تحاولُ إضحاكه بينما يُسكتها بأسلوب جاف.

*****

ازدادت ملامح آدم رجولة و جاذبية بمرور السنين، قَتَلَ الفقر و استطاع أن يرتدي الثياب الفخمة و أن يقتني سيارة بعد أن هوى في طرقات الحياة السوداء و أجواءها الشيطانية ناسياً طريق العودة، الأصح أنهُ لم يرد العودة، فقد ملَّ من الذُل و المعاناة.

كان يعيشُ في عالمٍ مظلم لا يتخيلُ الأشخاص العاديون و جوده، في منزل كبير، مع بعض الشبان و الفتيات الذين كانوا يبيعون انسانيتهم و كلَّ شيئ خاصٍ بهم في سبيل المال.

كاد أن يغفو و هو جالس على الأريكة إلا أن نور الشمس اخترق الستار و لامس رموش عينيه، ففتحهما بانزعاج ثم اشغل سيجارته منتظراً قدوم سيلينا، كان يعلمُ بأنها خانتهُ مجدداً على الرغم من معرفتها بأن أمراً كهذا سوف يوترُ العلاقة بينهما.

دخلت و هي ترتدي ثياب سوداء و تضعُ مكياجاً قاتماً و حمرةً مائلةً للون الأسود، لقد زادتها السنين صلابة، كانت القوة و السادية يُشعان من عينيها، اقترب منها بغضب(فعلتها مجدداً، صحيح؟؟؟ قمتِ بخيانتي!).

سيلينا(تضحكُ بسخرية): أخونك!!، كُفَّ عن هذه الدراما، أحبك و تحبني لكني لستُ حكراً لك و لا أنت حكرٌ لي، يمكنكَ إقامة علاقة مع أي فتاة تريدها، هذا لا يغضبني، مصطلحُ الخيانة وجدَّ لمن امتلكوا كل شيئ و لم يكتفوا أما بالنسبة لنا فنحنُ لا نملكُ شيئاً منذُ البداية، إننا مصنوعون من الخيانة و نعيش فيها.

قامَّ آدم بإطفاء سيجارته بكفي يده و تحدث بحزم: سامحتكِ كثيراً لكن ابتداءً من هذه اللحظة سأترك المنزل، لم أعد أرغبُ بمشاركتكِ في أي شيئ، لا في المنزل و لا في العمل.

سيلينا(تلف يدها حول عنقه): لا تكن معقداً هكذا، لقد تعرفتُ على رجل أمن يستلم مناوبات على الحدود، إنهُ يحبني و يرغبُ في الزواج مني، إن زواجي منه سيفيدنا سأتمكنُ من تمرير أي مادة عبر الحدود ، سنجني أموال طائلة.

نظرَ آدم إليها بشفقة بعد أن أصبحت عبدة للمال ثم غادر المنزل يائساً متوجهاً إلى أقرب حانة و بدأ بشرب الويسكي.

*****

كانت بيلا تقوم بتدليك ظهر الياس حين سمعا صوت رنين الرسائل على موبايل والدها، ذهبت لجلب الموبايل لتشاهد بأن أم حسن قد أرسلت لهُ صور لحسن و خطيبته أثناء حفل الخطوبة، تذكرت كلمات حسن (سأبقى أحبكِ حتى الموت، لكننا لن نستطع الاستمرار هكذا، على كلٍّ منا أن يلتفت لحياته، تعبت من ضغط والدتي و الأقارب بشأن تزويجي، أستطيع أن أشعر بمدى تعاستك فيما لو حدث الأمر لأنني أعاني من هذا الشعور في اللحظات التي أتخيل فيها أنكِ من الممكن أن تصبحي لشخص آخر).

أعطت بيلا الموبايل لوالدها و هي تخفي حزنها، توجهت إلى غرفتها لتعيش صراعها لوحدها بينما كان حسن يتبادلُ أطراف الحديث مع خطيبته زينب و هما جالسان لوحدهما في صالة منزلها، أخرجَ الموبايل من جيبه ليقرأ رسالة من بيلا (لقد فعلتها، مباركٌ لك).

تغيرت ملامح حسن بعد قراءته للرسالة و استأذن للعودة إلى منزله، لم تستطع خطيبته أن تفهم الغرابة التي تصرف بها، تركها واقفة تتساءل عن السبب و غادر و هو يشعر بغصة في قلبه.

كانت بيلا ترتجفُ بينما يقوم والدها بوضع كمادات الماء البارد على وجهها و هو قلقٌ بشأنها، رن الموبايل الخاص بها فأجاب عليه ليكون المتصل حسن (مباركٌ لك الخطوبة يا بني ، بيلا لا تستطيع التحدث إنها مريضة جداً ، أظنُ أنها مصابة بالحُمى ، كانت بصحة جيدة ، دخلتُ إليها لأدعوها لتناول العشاء فوجدتها ترتجف).

أنهى حسن المكالمة و هو يستثيرُ حزناً غضباً ، اتصلت به زينب فقام بإغلاق الموبايل دون أن يجب حاول الاسترخاء و هو يتنهد كأنه يريد أن يُخرج من فمه ما يتعب قلبه (خسرتها، لم تعد لي، لم تكن لي منذُ البداية).

فتحت بيلا عينيها لتجد والدها قد نام و هو جالسٌ بجوارها أيقظته بلطف(أبي، أبي، إذهب للنوم في غرفتك ستتعب هكذا)

-هل أنتِ بخير؟؟، هل يؤلمكِ شيئ؟؟.

-لا، لم يعد يؤلمني شيئ.

أخبرها أن حسن قد اتصل لمرات متتالية للاطمئنان إلى حالها ثم غادر، عادت للاستلقاء و هي تبكي (انتهت قصتي مع حسن، و انتهت معها فرحتي، فقدتُ

الشاب الذي تمنيتُ أن يكون لي منذُ عشر سنوات و لا أظنني سأتمنى سواه إلى أن أموت، سيتزوج من أخرى و ينجبُ منها، ستغارُ عليه مني و تطلبُ قطع علاقته بي، يا إلهي لا أستطيع تحمل هذا).

خرجُ حسن من غرفته ليجد أن زينب تساعدُ والدتهِ في تحضير الغذاء، تلتفتُ والدتهُ لهُ(صباحُ الخير أيها الكسول، لقد دعوت زينب لتناول الغذاء و جاءت مبكراً مصرةً على أن تساعدني).

ألقى التحية على زينب فأجابت بخجل ثم توجه لغسل وجهه بينما كانت بيلا تمسك موبايل والدها و تشاهدُ صوره مع خطيبته و تتأملُ إحدى الصور التي يظهرُ فيها حسن و خطيبته ينظران إلى عيني بعضهما بفرح.

نظرت أم حسن إلى كل من حسن و زينب بفرح و هما يتناولان الطعام و زينب ترمقُ حسن و هي تبتسم بين الحين و الآخر بينما يبدو جامد الملامحً ، كانت تظنُّ أن طبعهُ هكذا دون أن تعلم أن العاشق مهما كان جاداً سيصيبهُ ضربٌ من الجنون عندما يكونُ مع معشوقه، أمسكُ هاتفهُ و قرأ رسالة من بيلا (كفَّ عن الاتصال بي لا أريدك حتى صديقاً، لستُ بارعة في تحويل الحب إلى صداقة).

*****

كانت رفيف تجلسُ في غرفتها تتحدثُ إلى بيسان عبر الموبايل و هي منفعلة (وددت لو دعاني إلى الطعام يوماً، ماذا لو كان حقاً بخيل!!، يا إلهي هذا لا يحتمل، إن تزوجنا سأبقى جائعة لبقية عمري، هههه سوف آتي إلى منزلنا و أسرقُ بقايا الطعام من الحاجة، حسناً، سأتحدثُ بجدية، سأفعلُ كما قلتِ لي).

كانت كريمة تسترقُ السمع إلى رفيف بغيظ (عروقكِ أجنبية وقحة كوالدتكِ، و الآن إن أخبرتُ والدها سيقول لي كالأبله: دعي ابنتي و شأنها، لا تُزعجيها).

كان نضال يقود سيارته بيديه المرتعشتين و هو يتذكرُ كلام الطبيب(إنها كتلةٌ خبيثة عليك بإجراء جراحة في أقرب وقت ممكن ، هناك احتمالية للنجاح و يبقى الأملُ بالله، أو سنتبع خطوات العلاج لتأخير انتشار المرض).

أوقف سيارتهُ أمام مكتب صديقه المحامي مروان و هو يسندُ ذراعهُ على الحائط بسبب خوفه من المرض.

كانت كريمة تشاهد التلفاز حينما أتى إليها نضال و أخبرها عن ما قاله الطبيب، و عن قراره في أن يسافر إلى بريطانيا بعد أن تحدث إلى صديقه معاذ الذي يعملُ كطبيب في أحد المشافي هناك كي يقوم بحجز موعدٍ لهُ من أجل إجراء العملية،

أبدت كريمة تعاطفاً و أخذت تبكي بصوت مرتفع(يا إلهي، حبيبي يا نضال فاليحفظك الله، آآآه آآآه).

-أخفضي صوتك لا أريدُ أن تعلم رفيف، أريدها أن تركز في دراستها ريثما أعود.

مسحت دموعها بعنف و هي تنظرُ نحو نضال بكراهية لخوفه الزائد على رفيف بينما يغرسُ هو راسه بين كفي يديه.

*****

حلَّ المساء خرج حسن بسيارته برفقة زينب و هو يحاول أن يتجاهل التفكير ببيلا (إلى أين تفضلين أن نذهب؟؟).

زينب: لا يهم، المهم أن نكون معاً.

قام حسن بتشغيل الراديو (ما بينا معاد لو احنا بعاد ، أكيد راجع و لو بيني و بينو بلاد)

سرح في ذاكرته و وصل إلى اللحظات الجميلة التي قضاها مع بيلا حين كانا في البستان التابع لوالدها حيث كان يحملها لتقوم بقطف الثمار العالية ليتناولانها و هما في غمرة من السعادة و الانشراح، عليه الآن أن يصارح نفسه بأن بيلا ستُلغى تدريجيا من حياته لكن كيف لهذا أن يحدث بعد أن علقت أنفاسها في رئتيه، إنهُ يتنفسُها.

****

كان الظلام يبتلعُ الشمس شيئاً فشيئاً، خرجت رفيف للقاء إياد بعد أن ودعت والدها الذي أخبرها بأنه مسافرٌ بموجب العمل، كانت تشعرُ بعدم الارتياح فهي تكرهُ البقاء في المنزل من دون والدها، لكنها صممت على تنفيذ ما اتفقت عليه مع بيسان لتختبر إياد، صعدت إلى سيارته بحماس (يا إلهي كم أنا جائعة، أعرفُ مطعماً بالقرب من هُنا، ما رأيك بأن تدعوني إليه إن طعامه لذيذ).

وصلا إلى المطعم و جلست برفقته حول أحد الطاولات التي يجاورها جدار زجاجي يطلُ على الرصيف، جاء النادل فبدأت رفيف بطلب معظم وجبات الطعام الموجودة في القائمة، بينما ينظرُ إليها إياد مصدوماً(لماذا كلُ هذا!!!، هذا كثير).

-قلتُ لك إني جائعة، أشعرُ بأن شهيتي مفتوحة، يا إلهي نسيتُ أن أطلب العصير و المياه الغازية، إيها النادل.....

كانت تنظرُ نحو إياد و هي تلعبُ بشعرها و تدندن إحدى الأغنيات بصوت منخفض، بينما يجلسُ آدم حول أحد الطاولات القريبة يراقبهما، كان يرى في رفيف الفتاة الغنية السخيفة الغير مبالية بشيئ سوى الضحك و اللهو.

امتلأت الطاولة بأطباق الطعام، أخذ إياد ينظرُ إلى رفيف التي بدأت بتناول الطعام و بدت له غريبة التصرفات، انتبهت رفيف إلى وجود أحد الأطفال الفقراء ينظرُ إلى الطعام من الزجاج المجاور لهما و يبدو بأنه كان جائعاً ، أشارت له بالدخول.

إياد: ماذا تريدين منه؟؟، لماذا دعوته؟؟.

رفيف: يبدو جائعاً و الطعام كثير سيأكلُ معنا، أصمت لقد أتى.

طلبت من الطفل الجلوس بجوارها و وضعت أمامه طبقاً يحوي من شتى أنواع الطعام الموجود بينما كان ينظرُ إياد إليهما و هو يشتعلُ غضب، لم يستطع ضبط أعصابه أكثر فنهض من مكانه (أحضرتني إلى هُنا و طلبتِ كل شيئ في المطعم و لم أتفوه بكلمة و الآن تقومين بدعوة المتسولين ليتناولوا معنا الطعام، لاااا هذا كثير، هل تظنين أنني أقطفُ المال من الشجرة).

وقفت رفيف مصدومة بحديثه الذي جعل عيون الحاضرين تتوجهُ نحوهم ثُمَّ تركها و غادر، جلست في مكانها محرجة من نظرات الموجودين، طلبت من الطفل أن يكمل طعامه و الدموع تلمع في عينيها.

******

كانت بيلا جالسةً مع والدها في الصالة و الخوف يسيطرُ عليهما بعد تدهور الأوضاع الأمنية في جميع القرى المجاورة، و نزول القذائف التي تسقطُ على قريتهم لتهز الأرض من تحتهم كلَّ قليل (عندما يطلعُ الصبح ستسافرين إلى لبنان، أقيمي لفترة عند خالتك أم حسن، أرى أن الأوضاع تزداد سوءاً مع الوقت).

بيلا: و أنت؟.

لياس: لن أترك المنزل و الأرض التي قضيت سنين من عمري و فياً لها إلا و أنا جثة.

تعانقُ والدها بحنية(لا تتحدث هكذا، إما أن نبقى معاً أو نغادر معاً، إياك أن تظنَّ أنه من الممكن أن أغادر من دونك).

كان الوقت يمرُ حتى غفت عيني الياس على الأريكة ، أما بيلا نهضت بقوة بعد أن سمعت أصوات إطلاق ناري قريب من المنزل، توجهت للنظر عبر النافذة لتجد

الحرائق قد نشبت في الأراضي المجاورة و عناصر يرتدون الأسود ووجوههم مغطاة يركضون بين الأشجار.

أيقظت بيلا والدها و هي ترتجفُ من الخوف(أبي، أبي، إنهم قادمون)، توجه لياس مسرعاً ليحضر المسدس من حيث يخبئه، بينما أمسكت بيلا هاتفها و اتصلت بحسن الذي كان موبايله يرنُ في غرفته الفارغة بينما يجلسُ هو مع زينب في أحد المقاهي يتبادلان الأحاديث، كان يحاول تناسي بيلا و يجربُ الاستمرار كأنها لم تكن على الرغم من أن كل تفصيل صغير حوله يأخذهُ إليها و إلى الذكريات التي تربطه بها.

*****

كانت كريمة مستلقيةً في أحضان مروان ، لقد قضى الزمن على حبها لنضال الذي أعطى كل مشاعره لابنته رفيف و أهملها فبحثت عن اهتمام من مصدر آخر لتقيم علاقة غرامية مع صديقه.

نهض مروان ليغادر المنزل قبل قدوم رفيف و هو يتحدث (لا تقلقي سيكون كل شيئ على ما يرام، و سيحدث ما نسعى إليه، ثقي بي).

في الحين التي كانت فيه رفيف تمشي في أحد الطرقات المؤدية إلى المنزل و هي تتحدثُ إلى الهاتف المحمول(جعلني أدفع الفاتورة، تخيلي لو لم أكن أحملُ المال!!، شعرتُ و كأنني كنتُ أشحذ الطعام منه، نهض كالأبله و صرخ في وجهي أمام الحضور، تمنيتُ لو أنني متُ قبل هذا)، كان آدم يتبعها بخطوات بطيئة و في إحدى الحارات الفارغة أخذ يقترب منها بهدوء لكنهُ سرعان ما ابتعد و تظاهر بأنهُ يمشي في طريقه عندما رآها تشيرُ لمروان الذي ظهر في نفس المكان بشكلٍ مفاجئ.

****

كان باب منزل لياس يُطرقُ بقوة بينما يقفُ هو و بيده المسدس و خلفهُ بيلا، قام الرجال بخلع الباب و توجيه المسدس نحوهما، فقام لياس بتوجيه المسدس نحوهم بيده المرتجفة(اتركونا و شأننا أرجوكم، ابنتي، لا تؤذوا ابنتي).

قام أحد الرجال بإطلاق الرصاص على صورة النبي عيسى المعلقة على الحائط ثُمَّ إطلاق النار على رأس لياس بينما هو يتوسلُ إليهم، سقط لياس أرضاً بينما بقيت بيلا مصدومة و كأن عقلها لم يستوعب ما حدث بعد.

قام أحد الرجال بإمساك بيلا من شعرها و جرها إلى غرفة والدها ثم كشفُ عن وجهه لترى جواد أمامها (هل تظنين أن جواد ينسى، هل الكلب الذي أرسلته لي ليهيننـي سيتمكن الآن من تخليصك منـي أيتها هالعاهرة).

أخذ يقتربُ منها و هو يضربها بينما ترجوه بأن يتركها غير قادرة على المدافعة عن نفسها بعد أن رأت والدها يُقتلُ أمامها، رماها على السرير فسقط الكتاب الذي كان فوقه على الأرض و سقطت منهُ ورقةٌ أشبه بالرسالة.

عندما انتهى من تعنيفها و الاعتداء عليها، بقيت هامدة على الأرض كوردة ذابلة بينما أخذ يتجولُ في أنحاء الغرفة و هو يسخرُ منها، لفتت نظرهُ الورقة فأمسكها و أخذ يقرأُ محتواها بصوت مرتفع (لياس، أدركت بعد هذا الوقت بأنـي أخطئت في حقك و حق ابنتـي، لكننـي كنت شابة طموحة، شعرت حينها أن الزواج و الإنجاب ليس الشيئ الذي سعيتُ إليه، كما أنك لم تكن منصفاً، ما كان عليك أن تخيرنـي بين الانفصال و التنازل عن ابنتـي نهائيا، أعلم بأنك تحبنـي و ربما ظننت بأنك ستمنعنـي إن وضعتنـي أمام خيار كهذا كما أعلم أن التنازل كان خطيئة و أننـي ربما لهذه اللحظة أُعاقبُ عليها، أرجوك أرسل لـي صورة لها أو على الأقل أعطنـي عنوانكم، إنـي أرسلُ دوماً إلى بريد شقيقتك و لا أعلم إن كانت رسائلـي تصلك، أرجوك).

ضحك بأسلوب مستفز بينما ظهرت اختلطت ملامح بيلا الدامية بالدهشة (ألم تخبرينـي أن أمك ميتة أيتها الوضعية، هههههههه).

*****

دخلَّ حسن إلى المنزل ليجد والدتهُ جالسةً في الصالة ، جلسُ بجوارها (غريب لم تسأليني عن زينب بحماس كعادتكِ، إنها فتاة لطيفة لكنـي أظنُ أنـي لن أنسى بيلا ، إنـي أحاول لكن ماذا إن فشلت!!!).

تردُ أم حسن بغصة: و منذُ متى كان الحبُ شرطاً للزواج، ستتزوجها بنـي و ستحبها لاحقاً.

حسن: أمي ما الأمر!!! ما بكِ؟.

تنهضُ أم حسن بحزن: عليك أن تنسى بيلا لا أظنُ أن بيلا موجودة بعد الآن، إنسَ يا بنـي في النسيان حياة.

جُنَّ جنون حسن: ماذا تقصدين!!! هل حصل لها مكروه!!! ما الذي حدث!!! قولـي لـي.

أم حسن: لقد سيطر التنظيم على قريتهم و نشبوا فيها الحرائق و الآن يرتكبون المجازر بحق السكان.

أسرع نحو غرفته و أمسك الموبايل ليجد مكالمة فائتة من بيلا و رسالة كتب فيها (أردتُ أن أودعك، سنكون أموات).

عاود الاتصال بها إلى أنهُ وجد الرقم خارج التغطية لكم المرآة في يده مراراً و تكراراً حتى سالت الدماء منها، ركضت والدتهُ إليه محاولة تهدئته(هدء من روعك بني، اهدأ أرجوك، إنه قضاء الله)، جلسُ على الأرض باكيًا (لقد اتصلت لتودعني، لا أظن أنها تذكرت أحد آخر في تلك اللحظات، أرادت أن تودعني، لم أجب، لم أجب لأني شخصٌ أناني و تافه، ابتعدي يا أمي لا أريدُ أن أرى أحداً، اتركيني لوحدي).

نهض من مكانه و أخذ يحطم كل شيئ حولهُ بينما انسحبت والدته خارجاً بإصرار منه.

*****

كان الشتاء يودعُ الخريف، في تلك الليلة البكماء و قبل أن يحين موعدُ العملية اتجه نضال إلى المنزل الذي كانت تقيمُ فيه ليال طرق الباب و قلبهُ ينتفض، لا يدر من أين سيبدأ الحديث و هل سيفيدُ الاعتذار بعد وجع السنين، هل ستزول الندبة و تعودُ التجاعيد إلى شبابها كأنها لم تتألم و لم تهرم، كانت كلُ قطرةٍ من دمه تعيشُ ثورتها الخاصة و هو يحاول صياغة كلمات الاعتذار(ليالي أنا آسف، ابنتنا رفيف تعيشُ معي، أنا من اختطفتها) أوقفت هذه الحرب الداخلية العجوز البريطانية التي فتحت لهُ الباب و أخبرته بأنها اشترت المنزل منذُ زمن و أنها لا تعلمُ شيئاً عن مالكته.

عاد أدراجه إلى المشفى و هو يحملُ فوق ظهره ندم السنين، كان لهُ في كلِّ شارعٍ ذكرى، أخذ الأطباء يجهزونه للعملية و الخوف يغزو ثناياه ترى هل ستكون ليلتهُ الأخيرة أم أن القدر سيمنحهُ فرصةً ليطلب الغفران.

*****

كانت رفيف تتمشى برفقة بيسان في شوارع الشام القديمة و نسمات الهواء الرقيقة تلاطفُ شعرها، بدأت تشعرُ بالبرد و كان على كلٍ منهما أن تعود لمنزلها بسبب تأخر الوقت، على الرغم من أنها كانت تضحكُ كثيراً إلا أن الحزن كان يخدشُ قلبها بسبب غياب والدها و تصرف إياد المخيب معها.

مشت لوحدها بينما بدأت قطرات المطر بالنزول، كانت تتمنى لو أن والدتها حية لتفتحّ لها الباب حين تعود، أن تستلقِ بجوارها في السرير لتروي لها قصة كما لو كانت طفلة.

توقف آدم بسيارته بجوارها و هو يضعُ قناعاً أسوداً، اقترب منها بهدوء ثم قام بوخزها بإبرة مخدرة في عنقها .

كانت كريمة تتجولُ في صالة المنزل ذهاباً و إياباً، متمنية أن يصلها خبر وفاة نضال لتعيش حياتها من جديد برفقة مروان.

رنَّ هاتفها المحمول فركضت نحوهُ لتتلقى خبر الوفاة، كان الخبرُ صادماً على الرغم من أنه متوقع، لم تُرد أن تفكر بعشرة السنين و بأن هذا الشخص الذي قضت معهُ في شبابها أجمل الأيام لم يعد موجوداً، أخذت تفكرُ بالثروة التي ستنالها و بالسعادة التي تنتظرها مع مروان.

****

على الرغم من أن حسن لم يؤمن بالماضي إلى أنه قد نسى حياته هناك، كان جالساً في مكتبهِ يستردُ جميع ذكرياته مع بيلا و كأنه يسكنُ في ماضيه و يرغبُ في أن يعيشهُ من جديد، تذكرَّاللقاء الأخير ، كانا يمشيا بين الأشجار، بدى كل شيئ مسالماً و ساكناً بينما يلاطفُ الحبُ أعماقهما وقفَ أمامها و نظرَ حوله ثُمَّ اقترب منها برومنسية ليسرق قبلة لكنها ابعدتهُ بخجل فأمسك بيدها و طبعَ قبلةً عليها ثُمَّ ضمها إليه و هو يلامسُ بأصابعه شعرها الحريري.

عادَ من ذكراه متنهداً و أخَّذ يدور في رأسهِ حوار سابق لهما.

حسن: حتى لو تزوجتُ من أخرى و تزوجتِ أنتِ سنبقى نحبُ بعضنا، ستكونين معي في جميع الأحوال.

تردُ بيلا بغضب: ما الذي تقوله!!!، أما أن أكون لك أو أكون لغيرك و أنت بالمثل، أنا لا أقبلُ أن أُشارك و أتشارك.

حسن: أكرهُ نفسي عندما أعي ما أتحدثهُ لكن لا أعلمُ ما قد يخبئه لنا المستقبل ، لا أريد أن أخسركِ، إنتي كالشريان الموصول إلى قلبي لا أستطيعُ أن أعيش إلا بكِ.

نهض من خلف مكتبه و توجه إلى غرفة المدير ، ألقى عليه التحية ثم أخبره حازماً عن رغبته في ترك كتابة التقارير حول الحالات الإنسانية حالياً و طلب الخروج مع المصور كمراسل حربي إلى سوريا كبديل عن المراسل السابق بعد إصابته هناك في قرية قريبة من قرية بيلا.

*****

استيقظت رفيف نظرت حولها لتجد أنها بمفردها في تلك الغرفة الموحشة، لم يكن في الغرفة نوافذ، لم تعلمُ كم تكون الساعة و فيما إذا كان الصباح قد حلَّ أم لا ، فتح تامر الباب بهدوء ثم دخل إليها، كانت تنظرُ نحوه مترقبةً ما يريدُه منها، أخرج من جيبه سكيناً حادة و نظرَّ إليها و هو يضعُ إصبعهُ السبابة على شفتيه محذراً (هسسسسس، إن حاولتِ التذاكي سأقتلك).

أخذ يمشي نحوها و هو ينظرُ إليها بخبث بينما يفك أزرار قميصه، أمسكت بالكرسي الذي كانت مقيدة عليه و ضربتهُ بهِ، اندفع نحوها بقوة و هو يحاول تثبيتها على الأرض بينما تصرخ طالبةً المساعدة فقام بلكمها حتى كادت تفقد الوعي، خرج مسرعاً عندما سمع صوت باب الغرفة المجاورة يفتح.

كان آدم قد استيقظ لتوه التقى بتامر في الصالة(ما الأمر!!!، ما هذا الصراخ؟؟).

-كانت تصرخ و حين دخلت ضربتني بالكرسي محاولةً الهرب ما كان عليك أن تفك وثاقها.

ارتدى آدم قناعهُ و دخلَ إليها غاضباً، كانت لا تزال مرمية على الأرض لم تكن تستطيع التمييز بينهما فأجسامهما متقاربة و يرتديان نفس الثياب و الأقنعة، اقتربَ منها آدم بينما تحاولُ الدفاع عن نفسها و هي تتألم من اللكمات، نهض بها بقوة و قام بإجبارها على الجلوس على الكرسي و إعادة تقييدها ثم وضع اللاصق على فمها و حين انتهى تحدث بحقد(جنسُ نجس، أفاعي).

*****

كان حسن و المصور يغطيان الأحداث من خلف عناصر الجيش الذين يقومون بالاشتباك، كان الجوُ بارداً و كانت أيديهم التي كادت تتجمد من الخارج تتحركُ بكل حيوية رغبةً في الحياة و الانتصار.

بعد ليلة نارية مشتعلة تمكن الجيش من السيطرة على القرية المجاورة لقرية بيلا و رفع أحد عناصر الجيش العلم السوري على سطح البلدية التابعة للقرية.

رفع حسن يديه بعد هطول المطر بغزارة و أخذ يدعي بخشوع (يا رب لا تؤذيني بها، أريدها منك حلالاً فاحفظها لي يا الله).

*****

طوال سنين و بيلا تتساءل تُرى ما الخطأ الذي ارتكبته بحق جواد حتى قابل حُبها لهُ بهذه الإساءة لكنها اكتشفت مؤخراً أن قوانين الإنسانية لا تنطبقُ على جميع البشر فهو يتغذى على أي شخصٍ كي يحيى و يحقق متطلباته حتى لو كان بدافع التسلية.

كانت مستلقيةً و هي تعانقُ ركبتيها من البرد في أرضِ منزلٍ قديم ممزقة الثياب و جلدة رأسها ظاهرة بعد أن حلق لها شعرها على الصفر.

رجَّ المنزلُ بأكمله بعد نزول قذيفة قريبة وسقط أحد جدرانه، فتحت عينيها و نهضت ببطء متوجهةً إلى الفراغ الذي خلفه الجدار، استرقت النظر إلى الخارج لتجد جواد جثة هامدة، كان الظلام قد خيم و الجوار يبدو فارغاً ، تقدمت بخطوات خائفة و هي تلتفتُ حولها ثم ركضت بجسدها الوهن إلى حيث لا تدري ما النهاية.

*****

كانت كريمة تقوم بمساعدة مروان ببيع كل شيئ كان يملكه نضال دون أن تخبر أحد بأن نضال قد مات كي لا يتم إفساد ما يفعلانه، ففي الحين الذي ذهب فيه نضال لمكتب مروان ليسجل كل ممتلكاته باسم رفيف، قام مروان بإعطائه مجموعة من الأوراق لتوثيقها ببصمته و توقيعه و من بينها أوراق تنازل لكريمة عن كل شيئ، و لثقة نضال بمروان قام بالإمضاء و وضع بصمته دون أن يقرأ المحتوى كامل.

في حين كان آدم يحضر الإفطار و كلمات سيلينا تمرُ في ذهنه (لقد تزوجته سيكون كل شيئ هين، ستعود عليك فائدة كبيرة إن عملت معي، عُد إلى رشدك، كفَّ عن التصرف كالأطفال و السير وراء قوانين الحب التقليدية فالنجعل من قصة حبنا غريبة و ممتعة).

اقترب تامر من رفيف التي لا تزال مقيدة و هو يضغطُ بأصابعه على آثار اللكمات و يضحك كما لو أنه يلهو، دخل آدم يحملُ الإفطار و قام بإزالة اللاصق الذي على فمها حاول إطعامها لكنها رفضت و هي تنظرُ إليه باحتقار(اتصل بوالدي أو بكريمة، أريد أن أحدثهما، هيَّا أريد أن أحدث والدي، اتصلا به).

تامر: هاتف والدكِ لا يعمل أيها الحمل الوديع، و كريمة ترفضُ الاعتراف بأنك ابنتها و أنها تعرفكِ، لكن لا تقلقي سنحاول مجدداً (أخذ يلعبُ بخصلات شعرها) إن لم تجب سنستفيدُ منكِ بشكلٍ آخر.

قام آدم بالاتصال بوالدها لكن الرقم كان خارج الخدمة ثم اتصل بكريمة و لما أجابت وضع الهاتف بالقرب من رفيف و قد فتح مكبر الصوت، تحدثت بصوت مبحوح (خالتي أنا حقاً مخطوفة، إنها ليست مزحة، أرجوكِ تصرفي، تحدثي لوالدي، افعلا شيئاً).

_ و ما ذنبي أنا، هل ذنبي أنك تسكنين الشوارع حتى وقت متأخر، قولي للخاطفين سأعطيهم المزيد من المال إن أبقوكي لديهم هههههه.

_ ما الذي تقولينه!!!! ، لماذا تتحدثين معي هكذا؟؟.

قامت كريمة بإنهاء المكالمة، تسارعت أنفاس رفيف من ردة فعل كريمة، نظر كل من تامر و آدم إلى بعضهما متساءلين عما يحدث، اقترب منها تامر و أمسك بطبق الحساء و أخذ يشربُ منه و هو يحدثها (امممم ما الأمر؟ ، ماذا سنفعلُ بكِ الآن ؟؟).

ضغط على مكان الكدمة وهو يضحك فبصقت عليه (عليكما قتلي قبل أن تقتربا مني)،رشقها بالحساء على وجهها بعصبية، فأمسكه آدم بغضب لما فعله و قام بإخراجه من الغرفة، عاد إلى رفيف، نظرَ إليها و هو لا يدري ما يفعل (هل أحرقكِ!!!)، جلب قطعة قماش بعد أن بللها بالماء البارد، تحدثت و دموعها منهمرة (أبي سيدفعُ أي شيئ لأعود إليه، لكن أرجوكم لا تقتربوا مني).

-إنه يخيفك فقط، لن نقوم بإيذائك إن لم تقومي بفعلٍ أحمق.

-إنه مختل، مريضٌ نفسي حاول إيذائي بالفعل.

-ماذا فعل؟.

بدأ يمسحُ لها وجهها برفق، لتلتقي عينيه بعينيها بين الحين و الآخر و هو يزور بنظراته ملامحها بينما تخبره عما فعله تامر دون أن يبدي أي ردة فعل أو تجاوب مع حديثها.

*****

استطاع حسن الوصول إلى القرية مع عناصر الجيش، ركضَ إلى منزل العم لياس و المصور يتبعهُ ، دخلَّ مسرعاً لينصدم بجثة لياس المنتفخة التي لا تزالُ في مكانها، التفت إلى المصور (لا تصور أي شيئ هنا، اتركني لوحدي من فضلك).

توجه إلى غرفة بيلا بتردد و أنفاسه متسارعة فوجدها فارغة، ثم إلى غرفة والدها ليجد قطرات من الدماء يابسة على الأرض و خصل شعر بيلا تملأ المكان، انحنى و التقط خصلةً منه بحسرة (تُرى ماذا فعلوا بك؟، الأوغاد) قبلها ثم وضعها في جيبه و خرج ليتابع البحث في باقي أرجاء المنزل بنبضٍ متسارع و خطوات مترددة خشية أن يراها جُثة هامدة.

كان بعض عناصر الجيش ينتظرون أمام المنزل، توجه أحدهم لالتقاط ثمرة برتقال منظرها لذيذ موجودة على أحد الأشجار في الحديقة، خرجَّ حسن من باب المنزل و ما إن وصل العنصر إلى الشجرة حتى انفجر لغمٌ لتندثر الشظايا و يتلون الجو بلون التراب.

******

مرَّت بضعة أيام، كانت كريمة تجلسُ برفقة مروان في المطار تنتظرُ حلول موعد الرحلة، اتصل بها الرقم ذاته الذي يتصلُ منه الخاطفين، فتحت الخط لتسمع صوت رفيف(أرجوكِ ساعديني، أنت تعلمين ما الذي ممكن أن يفعله والدي إذا عاد و علم أنكِ تصرفتِ هكذا، ساعديني و أعدك أني لن أخبره بشيئ).

-هل تظنين أنك تخيفيني أيتها الصعلوكة الصغيرة، نسيتُ أن أعزيكِ بوفاة والدك، أبقيت خبر وفاته سراً كي لا تحزني هههه.

-لا تمازحيني، هذا موضوعٌ لا يحتمل المزاح.

-اطمئني عزيزتي لا أمازحك، كان رجلاً طيباً رحمه الله.

وقع الموبايل من يد رفيف و هي بجوار آدم الذي يستمعُ إلى المكالمة، سندها بعد أن كانت ستسقط ثم جلست على الأرض مصدومة، هي لحظاتٌ و بدأت بالصراخ و النحيب، كان آدم مصدوماً، لم يسبق أن مرَّ عليه موقفُ مشابه، اقتربت من الطاولة حيث تركَ آدم مسدسهُ ، اقترب آدم لانتزاعه منها لكنها سرعان ما وضعته على رأسها و ضغطت الزناد لكن الرصاصة لم تخرج فهو غير مهيئ لاطلاق النار، انتزعهُ آدم منها (يكفي).

-إنهُ أبي، إنهُ حياتي، كيف سأكملُ من دونه، آاااااه يا ربي، آاااه، طوال هذه الأيام و هي تسخرُ مني، كيف سأعيشُ معها، أريد أبيييي، يا الله، أريد أبي.

أمسكت يَد آدم التي يمسكُ فيها المسدس و هي تنظرُ إلى عينيه و تبكي بمرارة(اقتلني، اقتلني أرجوك، يمكنك بيع أعضائي بعد الموت و الحصول على المال الذي تريده، اقتلني سأسامحك، لا أستطيع تحمل قسوة هذه الحياة من دون والدي، بدأت كريمة التي ربتني كوالدتي بالانتقام، إنهم لا يحبونني، الجميع يكرهونني ، اقتلني أرجوك).

وجه المسدس نحوها فأغمضت عينيها و الدموع تسيل منهما مستسلمةً لقدرها، ثم وضع المسدس جانباً، شعرَ بأنه وحيدٌ أيضاً و لا يوجد في هذه الحياة من يحبهُ بصدق و أنهُ مثلها لكنها كانت أشجع منهُ و طلبت الموت، فتحت عينيها (لماذا لم تطلق النار، هيّا، سيكون هذا قتلاً رحيماً)، حضنها كما لو كان يحضنُ نفسهُ من الداخل (كُفي عن البكاء، الحياة لا تتوقفُ عند أحد، عليكِ أن تكوني قوية).

لم تكترث لغرابة الموقف، كانت بحاجةٍ إلى حضنٍ تبكي بدفئه، حتى لو كان حضناً كاذباً، كانَ كل نبضٍ في جسدها يبكي معها حتى استنزفت كل قوتها و سقطت أرضاً.

****

كانت أم حسن ترتجفُ شاحبة الوجه و هي متوجهةٌ إلى الغرفة الموجود فيها حسن في المشفى، وقفت مع الطبيب أمام الغرفة ليطمئنها بأن إصابتهُ في الكلية لم تكن بالغة، دخلت فنظرَ إليها ، اقتربت منه و أخذت تمررُ يدها على شعره (الحمد لله على سلامتك، كيف تفعلُ هذا بي!! ، ذهبتُ إلى مديرك و علمت أنك أنت من طلبت الذهاب في هذه المهمة و أنها لم تُفرض عليك، لماذا تُعذبُ نفسك و تعذبُني، لماذا يا أمي لماذا!!!).

حسن: لقد قتلوا العم لياس ، رأيتُ جثته بعيني، أما بيلا فالله وحده يعلمُ فيما إذا كانت حية و ما هو العذاب الذي تعانيه معهم.

أم حسن: رحمهُ الله ، الموتُ سيكونُ أكثر رحمةً لها أدعو الله أن تكون ميتة.

حسن: لا أمي، لا ، لا تتحدثي هكذا، لا أحتمل فكرة أن تكون قد ماتت أو أن أدعي عليها، إياكِ أن تدعي عليها يا أمي أرجوكِ، ادعِ لها، ادعِ لها فحسب.

****

كان آدم في الغرفة المجاورة جالساً مع آدم يتناقشان فيما حدث بينما كانت رفيف منهارة الأعصاب في غرفتها.

آدم: لنتركها، لنعتبر بأن هذه العملية لم تكن، ستموت إن بقيت هكذا، ترفضُ الطعام و الحديث، طوال الوقت بكاء و زوجة والدها لا تريدها، ما الذي سنجنيه منها!!.

تامر: سنعيدها دون أي فائدة!!!! يمكننا أن نجني الكثير أو على الأقل نستطيع الاستمتاع معها لا تكن معقداً، إنها فاتنة.

آدم (بحزم) : لا، تعلم أن القتل أهون بالنسبة لي من فعلٍ كهذا، أحضرناها لأجل الفدية فقط.

تامر(بسخرية): يعجبني فيك أنك منحرفٌ له مبادئ، إذاً يا صاح اذهب و أحضر لها أكرم، سيوخزها بإبرة مهدئة و يعطيها دواء حتى يتحسنُ حالها ثم سنقوم بالتفاوض معها ربما لها حسابٌ في البنك مثلاً، حتى لو أطلقنا سراحها سنعقد معها اتفاقاً بحيث تعطينا المال أو نهددها بالقتل.

خرج آدم من المنزل لإحضار الطبيب الذي يتعاملُ معهم، استغل تامر غيابه و دخلَّ إلى غرفة رفيف و أخذ يحاولُ الاقتراب منها رغماً عنها، لم تكن تملك قوة كافيةً للدفاع عن نفسها،كانت متعبة بالكاد تقوى على فتح عينيها،استسلمت لما سيحدث، لم يشعر تامر إلا بيدٍ أحدهم أمسكت بقبعةِ معطفه و دفعتهُ بعيداً عنها، كان آدم قد عاد بسبب معرفته بنية تامر لكنه أراد أن يمسكَ بهِ متلبساً، كان إن اشتد غضبهُ أضحى كالمجنون، أعاد الإمساك بتامر بقوة من السترة التي يظهرُ طرفها تحت معطفه و أخذهُ إلى الغرفة المجاورة ثم دفعهُ ليسقط في أرضها (لقد خنت ما اتفقنا عليه، و من يخون مرة لا يمكن الوثوق بهِ مجدداً، كنتُ مخطئاً عندما اعتبرتك صديقاً مخلصاً للعهد)

تامر: ما بالك تُصعبُ الأمور، لا شيئ مما نفعلهُ أخلاقي ، ثم إنها كأي فتاةٍ من صديقاتنا ستكون هذه بداياتها ثُمَّ ستصبح عاهرة، هل تحسبها شقيقتك!!.

وجه آدم المسدس نحوه(اصمت و إلا قتلتك، و هذا ليس فقط تهديد، تعلمُ أني من الممكن أن أفعلها، أنا مَن أحضرتها و أنا الآن سأعيدها).

******

كانت زينب و والدتها تجلسان في الصالة مع أم حسن بعد أن جاءتا لزيارة حسن، خرج حسن من غرفته و هو يضعُ يدهُ على جرحه و ألقى التحية ثم جلس.

دخلت كل من أم حسن و أم زينب للمطبخ لتحضير العشاء كي تتركا فرصة لكل من حسن و زينب ليتحدثا براحتهما.

زينب: اشتقتُ لك، خفتُ عليك كثيراً.

حسن: و أنا أيضاً.

نهضَ حسن من مكانه بينما تنظرُ إليه زينب مستغربة (أنا متأسفٌ جداً جرحي يؤلمني سأدخلُ لأرتاح ، بالإذن).

نهضت (هل أساعدك؟؟؟).

-لا ، ابقِ جالسة، أستطيع الذهاب لوحدي.

دخل إلى غرفته بينما توجهت زينب إلى المطبخ لتساعدهما و هي تكتمُ في قلبه احزناً كبيراً بسبب مزاجية حسن في معاملتها .

******

حلَّ المساء، كانت رفيف متكورةً على نفسها و هي تمسكُ بكفي يديها طرفي سترتها و تضمهما إلى بعض بعد أن شقهما تامر، دخلَ آدم إليها و أعطاها معطفه لترتديه، ثُمَّ قام بلفِ قطعة قماش حول عينيها و كبلَّ يديها إلى الخلف، ساعدها على الجلوس في سيارته ثُمَّ قاد بها من تلك المنطقة النائية إلى أقرب تجمع سكني و قام بإنزالها و متابعةِ طريقه.

مرَّ أسبوع لم تخرج فيه رفيف من المنزل أبداً، جاءت عمتها لزيارتها طامعة بما ورثتهُ عن والدها، مقترحةً عليها أن تذهب معها إلى القرية أو أن تتزوج من أحد أبناءها و يأتي للسكن مع رفيف، لم تكن رفيف تحبُ السكن في قرية والدها بسبب العادات القديمة هناك كما كانت تعلمُ بأن عمتها لم تكن حنونةً عليها أبداً، في نفس الوقت لم تكن ترغبُ في الزواج من أحد أبناءها، كانت ترغبُ في البقاء في منزل والدها للأبد دون أن تفكرَ في أي شيئ آخر أو أن يتسلل أحدٌ من أقاربها إلى حياتها الخاصة، و بعد أن فشلت عمتها تحدثت بغضب (على ماذا كُلُ هذا الغرور!!! ، هل تظنين بأنكِ أفضلُ حال منا، لا أشعرُ أنك تنتمي لعائلتنا ، إنكِ غريبةٌ عنا، ابنةُ تلك المرأة البريطانية المجهولة و التي تحاولين دوماً التشبه بالأجانب لأجلها، ابقِ هُنا لوحدك ما شأني أنا بكِ، فالتبقِ هنا حتى تصبحي هيكلاً عظمياً، هل تظنين بأن أحد سيرغبُ بالزواج منكِ لجمالكِ أو حباً لكِ، جميعهم طامعون، كنتُ أريدُ أن أكسب بك حسنة بأن أزوجك أحد أبنائي لكنك لا تستحقين).

لم تردَّ رفيف على كلماتها لم يكن لديها رغبةٌ في الحديث معها أكثر،نهضت العمة نحو الباب الخارجي و هي تتحدثُ إلى نفسها (هذا ما كان ينقصني، عليكِ حمدُ الله إن وافق أحدُ أولادي على الزواج منكِ، تظنُ نفسها ملكة بريطانيا، الأميرة ديانا).

كانَ آدم جالساً في سيارته يترقبُ باب منزل رفيف، منذُ أن أطلق سراحها و هي لم تغادر فكرهُ أبداً كأنها زرعت نفسها في أعماقه.

كانت رفيف نائمة، حين سمعت طرق الباب، فتحت الباب لتجد بيسان التي أخذت تخبرها بأن الشقة الخاصة بوالدها نضال و المجاورة لشقتهم يسكنُ فيها أناس غرباء و انهم أخبروها بأنهم قاموا بشرائها من كريمة.

و بعد أيامٍ من البحث في الموضوع علمت بأن كريمة قد باعت معظم الأملاك بداعي السفر و أن المحامي مروان هو من كان مشرفٌ على عمليات البيع و الشراء، كانت تشعرُ بأن هناك شيئ غير منطقي، خصوصاً أنها علمت بأن مروان مسافر فيما يعني بأنهما قد سافرا معاً، كانت تفكرُ في نفسها(هل يعقلُ بأن والدها قد سجل معظم أملاكه لكريمة، أم أن هناك شيئ غير قانوني مما يفسر اختفاء كريمة و مروان) لكن جميع الأوراق كانت قانونية لذا لم يكن بوسعها فعل شيئ، و لم تكن راغبةً بفعل شيئ أيضاً.

*****

كانت الثلوج قد غطت الأراضي و سطوح الخيم في مخيمات اللاجئين السوريين على الحدود اللبنانية، توقفت سيارة حسن و نزل منها مع صديقه المصور جورج.

جورج: أهلاً بك من جديد، مآسي من نوع آخر ستنتظرنا، هنا بؤرة من الحالات الإنسانية الصعبة.

مشيا بين الخيام، ثم أوقفَ حسن إحدى السيدات للحديث معها : نحن صحافة ، إننا تابعون لقناة تلفزيونية نعدُ تقارير عن الحالات الصعبة ثم تظهر هذه الحالة على التلفاز و يقوم أحد المتبرعون بتقديم المساعدة الكافية لها، أريدُ منكِ أن ترشديني إلى أكثر شخص تظنين أنه بحاجة إلى المساعدة هُنا .

أم سليم: ألا ترى الوضع الذي نحن فيه، إننا جميعنا بحاجة إلى المساعدة، أنظر إلى الثلوج و إلى المياه التي تتسربُ إلى الداخل.

حسن: سيدتي أنا متأسفٌ جداً نحنُ نناقشُ الحالات الفردية، شخص ما بحاجة إلى عمل جراحي، إلى طرف صناعي ، إلى علاج نفسي أو جسدي معين .

أم سليم: آه لقد فهمتُ عليك، يوجدُ صديقتي وجهها مشوه بالكامل تقريباً هل بإمكانكم مساعدتها.

حسن: إن شاء الله، هل بإمكانك إرشادنا إلى خيمتها.

أم سليم: تفضلا سوف أذهبُ و أندهُ لها فخيمتها تسربُ الماء أكثر من خيمتي.

يدخلان للانتظار بينما تذهبُ أم آدم لتنده لصديقتها.

كانت أم علي جالسةً تشربُ كأساً من الشاي و هي تغطي وجهها بالوشاح لإخفاء التشوه و في إحدى أطراف الخيمة تستلقي بيلا بجسدها الوهن و رأسها الذي بالكاد قد نبت الشعرُ فيه و قطرات الماء تتساقطُ عليها من سطح الخيمة، قدمت أم علي لبيلا كأساً من الشاي (ليكون الله معنا يا ابنتي، ليساعدك الله على الأسرار و الألم الذي تخفيه خلف صمتكِ هذا).

دخلت أم سليم بفرح(جاء من بإمكانهم مساعدتك لتعالجي الضرر الذي في وجهك تعالي معي)

دخلت أم علي إلى خيمة أم سليم و الأملُ يلمعُ في عينيها، و بعد حديث طويل حددا لها يوم الثلاثاء في الأسبوع القادم كموعد للقاء الذي سيجري معها على التلفاز لمساعدتها في إصلاح ما يمكن إصلاحه من آثار الحروق البالغة التي في وجهها.

توجه حسن مع جورج إلى السيارة و هو يشعرُ بضيقٍ في صدره، فالوضع السيئ في المخيم و كلُ فردٍ فيه كان يأخذه إلى التفكير في احتمالية أن تكون بيلا تعاني أصعب من هذا في ظل هذا البرد القارص و الوحشية التي نمت في قلوب معظم الناس .

نظرت أم علي إلى أم سليم و هي تفكر: كان علي أن أخبرهم بوضع تلك الفتاة في خيمتي إنها تثيرُ شفقتي، أشفقُ عليها أكثر من نفسي، تبدو محطمة بالكامل.

أم سليم: أيتها هالحمقاء فكري في نفسك أولاً و بعد أن تجدي المتبرع الذي سيتولى أمرك، أخبريهم عنها، ثُمَّ إني لا أظنُ أنها بحاجة إلى شيئ و بالنسبة للألم النفسي فكلنا هنا نتألم.

أم علي: نحن نتألم و نتكلم لكنها تتألم بصمت .

******

اقترب المساء من القدوم، كان صوت الرياح قوياً و كأنها أرواحٌ تصرخ، كانت رفيف خائفة فهذا الجو يجعلها تشعرُ و كأنها موجودة داخل أحد أفلام الرعب.

قام آدم بالنزول من سيارته أمام منزل رفيف و قد غيَّر النمط الذي كان يرتدي به الثياب عندما احتجزها، طرقَ باب المنزل ففتحت لهُ مستغربةً هويته، حدثها مبتسماً (مساء الخير، أليس هذا منزلُ الطبيب نضال).

-نعم، تفضل ما الأمر؟.

-رحمهُ الله، كان أباً رائعاً، ليس فقط لكِ بل لي أيضاً.

استغربت كلماته و تحدثت بفرح (هل أنت شقيقي!!، هل هو متزوج من غير كريمة).

آدم(يضحك): لا في الحقيقة أنا يتيم ووالدك كان كأبٍ لي، قصةٌ طويلة.

جلسا في الداخل بعد أن دعته للدخول، نظرَّ إلى الحزن الذي كان يسيطرُ على ملامحها(لاحظتُ بأنك سررتِ عندما ظننتِ بأني شقيقكِ!! ، هل ترغبين في أن يكون لديك شقيق).

-نعم.

-غريب!، من يكتشفون أن لديهم أخ غير شقيق بعد وفاة والدهم يشعرون بأن الأمر كارثي.

-أنا وحيدة، هم ربما ليسوا كذلك.

-أليس لديكِ أقارب؟؟.

-لدي زوجة أب تركتني بعد وفاته و عمة لا تحبني، و بالنسبة لأهل والدتي فأنا لا أعلم من يكونون حتى.

-على أي حال أنا جئتُ إليكِ لأخبركِ بأنكِ لستِ وحيدة، أنا بجانبك، إني ممتنٌ لوالدك و سأكون سعيداً لو اعتبرتني صديق مقرب.

بدأ آدم يروي الأكاذيب حول علاقته بوالدها، أخذا يتحدثان عن حياتهما الشخصية ليسألها إذا كانت مرتبطة، جعلَّ الأمل يمشي في عروقها مجدداً و أخذت تتحدثُ إليه بانشراح (كنتُ أحبُ شخصاً، لعنه الله، جعلتهُ يدعوني إلى أحد المطاعم و قمت بطلب كل شيئ كي أختبر كرمه لكنه اختلق مشكلةً و غادر ليجعلني أدفعُ كل ما كنتُ أحملهُ و أعود مشياً إلى المنزل، فشل في الاختبار و علمتُ حينها بأنه بخيل، البخيلُ لا يمكنُ احتماله، كنتُ أراه بعد دوام الجامعة و أنا جائعة و أبقى جائعة حتى أعود إلى المنزل، آه أنا آسفة).

-لماذا تعتذرين ما الأمر؟.

-أخشى أن تكون أنت بخيلٌ أيضاً!! فأنا أهينك الآن، لماذا أنت صامت هل أنت بخيل؟، في الحقيقة البخل أيضاً له جانب إيجابي، سيبقى الجسمُ رشيقاً من قلة الطعام كما سيتم حماية الشخص من العديد من الأمراض .

كانت تضحكهُ على الرغم من أنهُ ليس بشوشاً، كانت تدغدغُ قلبه بعفويتها، يرمقها بينما تتحدث و يندمجُ معها في الحديث لينسيها حزنها، كان صوت الرياح يعلو

فتظهرُ علامات القلق على وجهها، تسائل عن السبب لتخبره عن تخوفها من هذه الأجواء، هي دقائق و انقطع التيار الكهربائي (يا إلهي هذا ما كان ينقصني).

-لا تخافي، سأبقى هنا إن رغبتِ حتى يهدأ الجو، بإمكانك الخلود للنوم، تصرفي كأني غير موجود.

-أنا حقاً متأسفة، لا أريدُ أن أشغلك عن أعمالك، علي أن أعتاد على هذا الوضع، يجب أن أتأقلم على كل شيئ.

-عليكِ إن تعتادي عندما لا أكون موجوداً، إنتِ الآن مسؤوليتي، و هذا لا يزعجني، جئتُ إليكِ بإرادتي لم يرغمني أحد.

سهرا معاً و طال بينهما الكلام، كلما عرف شيئاً جديد عنها كان يشعرُ بأنها تقتربُ من قلبه أكثر، كان الجوُ عاصفاً كأن الرياح لم ترغب في المغادرة، طلبت منهُ أن ينام في غرفة والدها بسبب تأخر الوقت و ذهبت هي للنوم في غرفتها.

****

كان حسن جالساً في غرفته يتأملُ صور بيلا على حاسبه المحمول منذ بداية معرفته بها حتى آخر لقاءٍ لهما، دخلت إليه والدته و جلست بجواره .

أم حسن: التفت إلى حياتك، يكفيك غوصاً في الماضي، أنظر إلى زينب كم تحبك، انساها.

يتحدثُ و هو يضربُ بقبضة يده على صدره: إنها هنا في قلبي، لا استطيع انتزاعها، من أخبرك أن النسيان متاحٌ دوماً، اختفت، اختفت و هي جريحة القلب، لقد خذلتها، بعد كل سنين الحب و كل اللحظات التي شهدت على شغفنا، ارتبطتُ بفتاة أخرى كي لا أغضبك و ها أنا حتى الآن أفعلُ ما تريدين، لكني لا أستطيعُ أن أكون إلا هكذا، هذا أنا حين أترك الفتاة التي أحبها لأتزوج من أخرى.

تدنو أم حسن منهُ برفق: كنت تضيعُ عمرك لأجل فتاة لن تكون لك، كيف لي أن أترك ابني الوحيد معلقاً بين السماء و الأرض ، ثم إنك شابٌ مؤمن، و تعلم بأن الله شيئاً إذا كتب شيئاً لك فسوف تأخذه حتى لو اجتمعت كل الأرض لتأخذه منك.

خشيت أم حسن بطلبٍ منه و هي تخشى أن يبقى حال حسن هكذا حتى بعد زواجه من زينب.

****

أصبح يخاف عليها كما لم يخف على أحد من قبل، كان يأتي يومياً إليها، يحضرَ لها كل مستلزمات المنزل، كان يوقفُ أي شيئ يقوم به إذا حلَّ المساء و سمع صوت الرياح تتأرجحُ في السماء، لم يعد يشربُ حتى يثمل، أما هي كانت سعيدة بوجوده في حياتها، غدا قريباً منها حتى أعطته نسخة من مفاتيح المنزل و أصبح شبه مقيم في غرفة والدها، كانت قد انقطعت عن دوام الجامعة بعد ما حدث معها، لأن كريمة سحبت كل المال الذي كان في حساب نضال، كانت رفيف تعلمُ أن المبلغ الموجود في حسابها لن يساعدها على أن تكمل دراستها في الجامعة الخاصة حتى تتخرج منها.

في أحد الايام فتحَ آدم الباب و دخل، كان المنزلُ مظلماً من الداخل و يطغى عليه السكون، كان يعلمُ بأن الظلام يخيفها أخذ يده بقلق (رفيف!!، رفيف!!)، أضاءت كرةٌ كبيرة تحتوي على دوائر صغيرة ينطلقُ من كل دائرة ضوء بلون مختلف عن مجاوره و سمع صوت أغنية (سنة حلوة يا جميل) بينما ظهرت رفيف و هي تحملُ قالب كاتو تضيئُ على وجهه الشموع المشتعلة على شكل شرارات و هي تغني مع الأغنية، لم يحظَ باهتمام كهذا من قبل، شعرَ بسعادة لم يشعر بسابقتها، اقترب من رفيف و حضنها شاكراً ثم ابتعد متأسفاً بعد أن لاحظ ارتباكها.

بعد سهرة طويلة دخلت إلى الغرفة التي يقيم فيها لتحضرَ له القداحة و بعد أن خرجت بقليل بدأت تضحكُ بهستيرية ثم تبكي بنفس الطريقة و هي تصرخ، اقترب منها بلهفة ليعلم ما الذي يحدثُ معها لكنها دفعته بقوةٍ كما لو كانت قوة رجل، أخذت تمررُ أظافرها على وجهها و جسدها كأنها تريدُ انتزاع لحمها، دفعها أرضاً حتى اصطدم رأسها بالأرض بقوة، لكنها لم تبدي أي ردة فعل اتجاه الألم نتيجة الضربة، أمسكها من يديها و هو يبعدهما عنها كي لا تؤذي نفسها متوسلاً لها بأن تتوقف عن ما تفعلهُ، استطاعت الإفلات من بين ذراعيه و أمسكت السكينة الموجودة بجوار قالب الكاتو و هي تضحكُ و توجهها نحو عروق يدها لتقطعها، هجمَّ عليها بقوة فقامت بسل السكين في ذراعهِ، أخذ يصفعها و يضربها بكل ما يملك من قوة حتى فقدت الوعي، كان الدم يسيلُ من فمها و أنفها، اقترب منها بلهفة متأسفاً مصدوماً مما فعلته و مما فعله(رفيف، هل أنتِ بخير، أنا حقاً آسف)وضع يده على على ذراعه ليرى الدم السائل منها بغزارة، ثم حملها و وضعها على سريرها و هو يفكرُ في تفسير لما فعلتهُ، توجه مسرعاً إلى غرفته ليجد ظرف الحبوب المسكنة الذي كان قد استبدل محتواه بحبوب مخدرة ينقصُ أربعة أقراص.

رمى بالظرف على الأرض و سحقه بقدمه ثم جلس على السرير و أخذَّ يلكمُ رأسهُ بيده، شعرَ بأنه يكره نفسهُ و يكره كل شيئ يفعله، لقد أذى أغلى شخص على قلبه في كل الكون.

مرَّ يومين، تحسن حالُ رفيف، فسر لها آدم ما حدث على أنه نوبة عصبية بسبب الضغط النفسي الذي تعرضت لهُ سابقاً، بكت بسبب الجرح العميق الذي أحدثتهُ في ذراعه فحضنها طالباً منها أن لا تكترث، كانت خائفة من أن يتكرر الأمر و أن تقوم بإيذاء نفسها أو إيذاء آدم مجدداً، أخذ يهون عنها (لا تقلقي لقد أخبرني الطبيب أن هذا لن يتكرر و أن هذه الحالة تحدث لمرة واحدة بسبب التراكمات نفسية).

-ماذا لو تراكمت تفسيتي مجدداً!!!، هل سأصبحُ مجنونة، يا إلهي، قُم بزيارتي في المشفى أرجوك، لكن تعلم؟؟، يواسيني بأني سأكون مجنونة بكاريزما و لست مجنونة بسخف، سيقوم كل المجانين بالخوف مني و سأتولى قيادتهم لنسيطر على العالم، هذا جيد، هناك جانبٌ إيجابي.

كانت تتحدثُ و هي تضحكُ بينما تقطرُ الدموع من عينيها، كان يعشقُ تلك الضحكة التي كانت تجدُ مكاناً على وجهها مهما ساءت الأمور.

****

أتى يوم الثلاثاء، كانت الأمطار غزيرة و الثلوج لم تذب بعد كما أن نسمات الهواء كانت تستطيع أن تصل للعظام لشدة برودتها، كانت أم علي جالسةً في خيمة أم سليم تنتظرُ قدوم حسن و جورج ليأخذاها إلى حيث سوف يتم معالجة وجهها متأملة بأنها لن تخجل من تشوهها لاحقاً و ستتمكن من إظهار وجهها دون أن تغطيه بالوشاح.

كان بعض الصحفيين يقومون بتصوير الأحوال السيئة هناك في حين وصلت سيارة جورج و حسن و نزلا منها نحو خيمة أم سليم، ما إن سمعت أم علي نداءهما حتى بدأت بالتأهيل بهما بينما قامت أم سليم بتضييفهم بعض الشاي الساخن ثم توجها مع أم علي نحو السيارة و قبل أن يصعد الجميع بها سمعت أم علي صوت ولدٍ يصرخُ و هو يلهث : أم علي... يا أم علي... لقد ماتت الفتاة التي في خيمتك.

أخذت أم علي تركضُ نحو الخيمة بينما يركضُ خلفها كلٌ من حسن و جورج، و ما إن وصلوا إلى أمام الخيمة حتى وجدو الصحفيين يصورون بيلا و هي على الأرض و المياه تكاد تغمرها، لم يكن وجهها ظاهراً باتجاه حسن الذي قام بإقصاء الصحفيين جانباً و الاقتراب منها ليتأكد من موتها، لفها إليه ليدس نبضها لكنهُ ما إن رأى وجه بيلا الذي يكاد يتلون بالأزرق من شدة البرد حتى ضمها إليه بعنف و بدأ يبكي بهستيرية، أصابت الدهشة جميع الحاضرين و بدأ الصحفيون بالتقاط الصور و تسجيل مقاطع الفيديو، و في غمرة من الحزن المخيم (ليرحمها الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، مسكينة، .....)، سمعَ حسن صوت سعال خفيف أصدرته بيلا، نظرَ

إلى الجميع بفرح (هل سمعتم!!!! ، هل سمعتم؟؟؟، لا تزال حية، إنها حية، الحمد لله، الحمد لله).

قام بحملها مسرعاً إلى السيارة و برفقته جورج و أم علي ، وضعها في المقعد الخلفي و صعدَّ بجوارها في حين قام جورج بالقيادة، أخذت أم علي تتحدث: الحمد لله أنها قد وجدت مَن يعرفها، منذُ بداية قدومها إلى المخيم و هي لم تنطق بكلمة واحدة، بقيت ساكنة طوال الوقت، لا أعلمُ اسمها حتى، ولا أعلمُ كيف استطاعت المحافظة على الصمت في حين أن كل شيئ من حولنا يتطلبُ الصراخ و النحيب، لكن ما أعلمهُ أنها تستطيعُ الكلام فقد كانت تتحدثُ في نومها أحياناً، صحيحٌ أني لم أستطع أن أفهم شيئاً لكنها ليست بكماء، في المناسبة ما صلةُ معرفتكَ بها؟؟؟...

******

كان أدم جالساً مع تامر في منزله بعد أن أصرَّ تامر على لقاءه ليطلب منه العفو عن ما فعله، و ما إن خرج آدم من المنزل و صعد إلى سيارته حتى تبعتهُ سيارة سيلينا التي كانت تنتظرهُ بجوار المنزل، وصل آدم إلى منزل رفيف و دخل دون أن ينتبه لسيلينا التي تراقبه، كان المنزل فارغاً،اتصل برفيف التي أخبرتهُ أنها خرجت لتوها لتزور صديقتها بيسان.

طُرق باب المنزل فنظرَ من العين الساحرة ليرى سيلينا، فتح الباب مستغرباً وجودها (ماذا تفعلين هُنا!!! ، ألم أقل لكِ أني لا أريدُ أن ألقاكِ؟؟).

أخذت تقتربُ منهُ و تغويه بينما هي تدخلُ إلى الداخل (مشتاقةٌ لك، أريد أن ألقاك رغماً عنك)، لم يكن من آدم إلى أن بدأ يتجاوب مع ما تفعله و انقادَ لما تريد.

لم تكمل رفيف طريقها إلى منزل بيسان بعد أن علمت بأن آدم جاء إلى المنزل، كانت تفضلُ أن تقضي وقتها معهُ أكثر من أي شخص آخر، أحبتهُ دون أن تصارح، أحبتهُ بأفعالها و ليس بالكلمات، كانت تنتظرُ أمام محل الشطائر و هي تفرك كفي يديها ببعضهما من البرد منتظرة ريثما يجهزُ طلبها لتعود إلى المنزل و يتناولا العشاء معاً.

دخلت إلى المنزل و الابتسامة تعلو وجهها لكنها سرعان ما تلاشت عندما سمعت صوتاً قريبٌ لصوت امرآة ، توجهت إلى غرفة والدها حيثُ كان مصدر الصوت، كان الباب مفتوحاً سقطت وجبة العشاء من يدها و غطت وجهها، ثم عادت أدراجها و جلست على الأريكة في الصالة و أعصابها ترتجف.

مرّت أقلُ من دقيقة خرجَ آدم إليها و هو يرتدي قميصه، جلس جاثياً على ركبتيه أمامها بينما كانت سيلينا تستمعُ إلى الحديث بينما تتهيأ للمغادرة، أمسك يديها و قبلهما.

آدم: متأسف لما حدث، أرجوكِ سامحيني، إنها فتاة تربطني بها علاقة قديمة، لا أدري كيف وصلت إلى هنا، لم أرغب بما حدث، لقد قامت بإغوائي.

رفيف(تتمالك نفسها): جعلتك تقيم في غرفة أكثر شخص أحبه في هذا الكون، لماذا تلوثُ ذكريات أبي بأفعال كهذه!!!، لم يعد هناك داعٍ لبقائك هنا فظلام البشر أكثرُ وحشةً من ظلام الوحدة.

أفلتت يديها من يديه بقوة (لا أريدُ البعد عنكِ، أحبكِ من أعماق قلبي، أقسمُ بأني أحبكِ، أخافُ عليكِ أكثر من نفسي، لا تبكي أرجوكِ).

قامت رفيف بمقاطعته و عيناها تفيضان (خُذ فتاتك و ارحل).

خرجت سيلينا من الغرفة و هي تتحدثُ بكل غرور (هل تظنين أننا ليس لدينا مكانٌ نلتقي به سوى منزلكِ، كفاكِ تظاهراً بالبراءة، هيَّا حبيبي لنذهب).

نهضَّ آدم و صرخ في وجهها(أتركيني و شأني، اذهبي في طريقكِ سيلينا، أنتِ لا تعنين أي شيئ لي، إذهبي ولا تستثيري جنوني أكثر).

هي المرة الأولى التي تراه رفيف فيها غاضباً لهذا الحد، غادرت سيلينا المنزل و النيران تشتعلُ في أعماقها بينما أكمل ارتداء ثيابه و قام بوضع نسخة المفاتيح التي معه في كف يدي رفيف ثم مسحَ دموعها التي تكاثرت على وجهها (لا تبكي فأنا لا أستحق).

خرجَ من المنزل مهزوماً، شعرَ بأن كل شيئ جميل انتهى و أن السعادة في حياته ستتوقفُ عند هذه اللحظة، توجهَ إلى سيارته لتظهرَ سيلينا أمامه (كيف تجرؤ على أن تحدثني هكذا أمامها!! ، تُحبها أم تُحبُ مالها؟؟، يكفيك تمثيلاً أعلمُ بأنك غاضبٌ مني لما حدث في السابق).

-ولدتِ رخيصة و عشتِ رخيصة و ستموتين رخيصة، نعم أحبها لكن أمثالكِ لا يعرفون معنى الحب، فأنتِ عبدةٌ للمال.

دفعها عن طريقه، فنظرت نحوهُ و الحقدُ يتطايرُ من عينيها (ستندمُ على هذه الكلمات، أقسمُ أني سأجعلك تندمُ على إهانتي).

قادت سيارتها بتهور و هي تتذكرُ طفولتها البائسة التي أمضتها في الطرقات تبيعُ الأزهار و تشحذُ المال إلى الحين الذي أخذها معهُ أحد الرجال رغماً عنها إلى منزلهِ و قام بالاقتراب منها على الرغم من صغر سنها، ثُمَّ أخذَ يتاجرُ بها مقابل المال.

كانت تحاولُ دوماً أن تبتعد عن هذه الرقعة السوداء من ذاكرتها لكن كلمات آدم جعلتها تشعرُ بأنها تعيشُ ما حدث مجدداً.

*****

طلَّ المساء باكراً كما يفعلُ في فصل الشتاء، دخلَّ حسن برفقة بيلا إلى المنزل، كانت تمشي بخطوات متعبة متجاهلةً النظر إليه بينما تبدو السعادة طاغيةً على وجهه، توقفَ بؤبؤا عيني أم حسن للحظات عندما رأتها ثم اقتربت منها للاطمئنان إلى حالها لكن بيلا لم تنطق بكلمة، طلب حسن من والدتهِ مساعدتها في تبديل ثيابها، لكن بيلا ما إن رأت غرفة الاستحمام حتى توجهت نحوها بهدوء و أغلقت الباب (إنها تودُ الاستحمام) نظرت أم حسن لابنها الذي بقي واقفاً أمام الباب و أكملت حديثها (سأحضرُ لها ثياباً، جهز لها غرفتكَ لتبقى فيها لوحدها لا أظنها راغبة في مشاركتي غرفتي أو الجلوس مع أحد).

طُرِقَ الباب بينما تحضرُ أم حسن العشاء، تذكرت بأنها قد دعت زينب لتناولِ العشاء معها و مع حسن قبل أن تفاجئها بيلا بقدومها، فتحت الباب و هي مرتبكة و دعتها للدخول.

فتحت بيلا باب الحمام لتجد حسن ينتظرها أمامه (لماذا تمنعين عينيكِ من الالتقاء بعيني، هل تعلمين كم أنا مشتاق!!!).

أمسكها من يدها فأفلتت يدها منه بنعومة و بعد إصرار منه خرجت لتناول العشاء، لكنهُ تفاجأ بوجود زينب التي وقفت مبتسمة لإلقاء التحية ثم نظرت إلى بيلا كأنها تتساءل من تكون فأجابتها أم حسن بأنها قريبتها و جاءت لتزورهم.

مدت زينب يدها لبيلا: أنا زينب خطيبة حسن.

انفطر قلبُ بيلا بينما هي تسلمُ عليها ثم جلست مع الجميع حول المائدة

إلا أنها لم تتناول سوى القليل و نهضت لتنهض معها أم حسن كي ترشدها على غرفة حسن لتبقى فيها، نظرت زينب إلى حسن بعد ذهابهما (هل هي خرساء!!!).

أخذت بيلا تنظرُ في أرجاء الغرفة بينما هي جالسةٌ على السرير، فتحت الدرج المجاور للسرير لتجد خصلة من خصل شعرها ، أمسكتها مستغربة في حين طرق حسن باب الغرفة و دخل ليجلس بجوارها و هو يتحدث بحزن(إنها خصلةٌ من شعرك، عندما انقطعت أخبارك سافرتُ إلى سوريا كمراسلٍ حربي للبحثِ عنكِ، دخلتُ إلى منزلكِ و أصبتُ هناك ، لقد زرعوا ألغاماً في الحديقة ، ألا يغفرُ لي هذا شيئاً!!!، ستبقين هكذا؟؟؟ ، تحدثي أرجوكِ).

وضعت بيلا الخصلة جانباً و استلقت للخلود للنوم، اقترب منها حسن و طبع قبلةً على جبينها ثم غادر الغرفة لتأخذ قسطاً من الراحة.

*****

أمضى آدم ليلتهُ في سيارته بجوار منزلها و هو يشربُ المشروبات الكحولية.

نهضت رفيف من على الأريكة بعد أن غفت عينها في الصالة، كان كل شيئ حولها محطم كأن معركة قد حدثت.

غسلت وجهها و دخلت إلى غرفتها لتغطي خيبتها المتفشية على وجهها بمساحيق التجميل، كانت تحاولُ أن تتماسك، أن تنسى.

خرجت من المنزل بكامل أناقتها متجاهلةً آدم الذي نزل من سيارته عندما رآها و بدى ينظرُ نحوها كما لو أن عينيه تطلبُ الغفران، توجهت نحو إياد الذي كان ينتظرها، ألقت عليه التحية و ذهبت معهُ بينما بقي آدم في مكانه يتآكلُ من الداخل.

*****

عادت رفيف إلى المنزل مع حلول المساء، نظرت إلى حيثُ يوقفُ آدم سيارتهُ في العادة لكن المكان كان فارغاً، شعرت بوخزةٍ في قلبها كأنها فقدت الشخص الذي كان يلونُ أيامها الرمادية، دخلت إلى المنزل، كانت كل الأنوار مطفأة، لم تذكر أنها أطفئت الأنوار قبل خروجها، توجهت لإضاءة الصالة، فشعرت بذراعين ضخمتين تمسكانها بقوة من الخلف.

كان آدم يشربُ في إحدى الحانات حين رنَّ هاتفهُ المحمول رأى بأن رفيف المتصلة فأجابها بلهفة لتطلب منهُ المجيئ إلى المنزل، شعرَ برجفة في صوتها، غادر مسرعاً، كان يخشى بأن تكون قد فعلت لنفسها مكروه بعدما بدر منه.

طَرَقَ باب منزلها بقوة ليتفاجئ بأن سيلينا هي من فتحت الباب، ابتسمت لهُ بخبث في حين دفعها جانباً و دخل يندهُ باسم رفيف ليتلقى ضربةً بكعب المسدس على رأسه من أحد الرجال و يسقطُ أرضاً.

فتحَ آدم عينيه ليرى نفسهُ مقيداً على كرسي و أمامهُ سيلينا تلفُ بأصابعها خصلات شعرها و هي تنظرُ إليه بقوة، التفت بجزع ليرى رفيف جالسةً على الأرض و ذراعيها مقيدتين خلفها، و على الأريكة التي وراءها يجلسُ رجلين ضخمين، كانت نظراتها إلى آدم تكسرُ قلبه.

آدم: اتركيها و شأنها، لم تفعل لكِ شيئاً.

اقتربت سيلينا منها و أخذت تمررُ يدها على شعرها ثم شدتهُ بقوة (هل تعلمين بأن العاشق الولهان هو من اختطفكِ في سبيل المال، لمَ أنتِ مدهوشة!!!، إنهُ هو آدم، البارحة يقوم بإهانتي لأجلكِ أيتها الثمينة، اليوم سينخفضُ سعركِ ستصبحين رخيصةً و رخيصةً جداً، لن تنتهي الليلة و إلا و أنتِ شخصية مشهورة هههههه، كما أني أحتاجُ إلى إحدى كليتيكِ هُناك مريضٌ محتاج، حراااااام).

كانت كلماتها تخيفُ آدم (لا تقتربي منها، إن كنتِ تريدين الرد على كلماتي أنا أمامكِ، افعلي بي ما شئتِ لكن لا تؤذها).

أخرجت الموبايل من حقيبتها و بدأت تصورُ فيديو مشيرةً للرجلين بأن يبدآ، أخذ الرجلين يقتربان من رفيف رغماً عنها بينما تحاولُ الإفلات منهما في حين كان آدم يصرخُ متوسلاً إلى سيلينا بأن تتوقف، و لما قام الرجلين بتثبيت رفيف دون أن تستطيع المقاومة أكثر، طلبت منهما الابتعاد ثم اقتربت من آدم (هل رأيت!!! بإمكاني أن أجعلَ منها أرخص فتاة على وجه الأرض، و أن أجعلُ منها حديث الشارع كما سأجني المال ببيع الفيديو)

-أرجوكِ سيلينا، بحق الأيام التي قضيناها سوياً و الحب الذي كان بيننا، اتركيها و شأنها.

-لو كنتَ تكترثُ لما كان بيننا لما حدثتني بهذه السخافة، لما قمت بإهانتي، لما غرست إصبعك في جوف جرحي الذي أتناساه و بدأت العبث فيه كي تؤلمني، سأكون أفضلَ منك.

مدّت يدها نحو وجهه بكبرياء (قبل يدي و أنت تتوسلُ لي، أريد أن أرى الذُل يقطرُ من وجهك القاسي).

فعلَّ ما تريدهُ و هو يخفي غضبهُ لأنه لم يردها أن تمس الفتاة التي رأى جمال الحياة في عينيها، ثم اقتربت من رفيف التي عانق وجهها الأرض و هي منهارةٌ من البكاء و قربت قدمها منها(أما أنتِ ستقبلين قدمي كي لا أجعل هذين الرجلين يكملان مابدآ به، هيّا، هيّا).

آدم: فعلتُ ما تريدين، ألم يكفيكِ إذلالي!!!، دعي رفيف و شأنها.

كانت تقربُ قدمها من فم رفيف (لا تتدخل أنت، سأعدُ إلى الثلاثة إن لم تفعلي ما طلبته سأنفذُ تهديدي).

فعلت رفيف ما تريده و دموعها تكادُ تخنقها، قامت سيلينا بفك وثاق يدي آدم و غادرت مع الرجلين بينما آخذ يفكُ وثاق قدميه.

اقترب من رفيف وفك وثاقها، هي المرة الأولى التي ترى فيها رفيف دموعهُ، دفعتهُ عنها و نهضت من مكانها و هي تمسحُ دموعها و تتحدثُ بقسوة (أكرهك، عُد إلى القاع الذي أتيت منه، أخرج من حياتي و أغلق خلفك بوابة العالم السفلي التي جئت منها، كم كنتُ مخدوعة، كم خاب ظني فيك، لا أصدقُ بأنك دنيئٌ لهذا الحد، لستم بشر لا أنت و لا صديقك و لا هذه الفتاة المقرفة).

اقترب منها فابتعدت بخوف ظناً منها بأنهُ يريدُ أن يضربها، عانقها بشغف و هو يكبتُ دموعه(لا تخافي، أراد هذا الشيطان أن يعانقك قبل أن يعود إلى عالمه فقط)

دفعتهُ عنها (إياك أن تلمسني أو تحاول الاقتراب مني ثانيةً)، كان مكسوراً كما لم يكن من قبل أكملَ حديثهُ قبل أن يخرج (كُنَّا أطفالاً نحلمُ بأن نلعب كبقية من في سننا في حين أن الأطفال العاديين كانوا يحلمون بأن يكبروا، أما نحنُ فكبرنا أولاً، ذنبنا أننا ولدنا في مجتمع لا يبالي بنا، مع والدين لا يكترثان إلا لمصالحهما، كأنهُ ذنبنا بأننا خُلقنا أو كأننا خلَقنا نفسنا بإرادتنا، ما الذي يتوقعهُ الجميع من قلوبٍ ماتت منذُ طفولتها، قلوبٍ لم ترَ من هذه الدنيا إلا الألوان القاتمة، كان علينا أن نتغذى على غيرنا كي نحيا، كنتُ أظنُ بأني أحبها لكن ما شعرتهُ معكِ كان مختلفاً، أقسم أني أحببتكِ، و بدأتُ أتغيرُ نحو الأفضل، لكني فشلت، سأعود لأعيش مع عديمي الإنسانية الذين أشبههم، لن أقترب منكِ مجدداً، لأني لا أريدُ أن يحدثَ لكِ مكروه بسببي، اعتنِ بنفسك).

حركت كلماتهُ مشاعرها لكنها بقيت صامتة بينما غادر المنزل مهزوماً و كأنه خسر أعظم معركة في حياته.

******

سُرعان ما تناقلت مواقع التواصل الاجتماعي صور بيلا و حسن و مقطع الفيديو حول الحادثة التي حصلت في المخيم تحت عنوان (صحفي لبناني يصادفُ حبيبته السورية في مخيمات اللاجئين).

لم تكن بيلا تستطيع النوم، أخذت تتقلبُ في الفراش بينما هي تسمعُ صوت أذان الفجر، نظرت إلى كأس الماء المجاور لها لتجدهُ فارغ ثمَّ أمسكت بهِ و خرجت نحو المطبخ بهدوء مروراً بالصالة حيث رأت حسن يقوم بأداء الصلاة دون أن يراها وقفت تتأمله ثم سمعت دعاءه بعد أن أنهى الصلاة حيث رفع يديه إلى السماء و هو يردد (اللهم يا جبار، اجبر كسرها ، اللهم يا جبار، اجبر كسرها ، اللهم هون عليها ما مضى و اكتب لها الفرح فيما سيأتي، اللهم إني أطلبها منكَ حلالاً، اللهم إني أطلبها منك حلالاً، اللهم اجعلها من نصيبي و اكتب لنا بعد عسرنا هذا يسراً و فرجاً و اشرح صدورنا يا رب).

عادت إلى غرفتها و هي تمسحُ دموعها قبل أن ينتبه لوجودها، جلست على السرير، و بدأت الأفكار تتخاطر في ذهنها (لماذا لا تضعُ حداً لحزنها الذي بلغ ذروته و تعودُ أدراجها نحو السعادة، لماذا تقوم بتعقيد الأمور و معاقبة حسن على الرغم من أنها تعلمُ بأنه يعاني مثلها، ألا يكفي أن الحياة قد حاكت قدرهما بطريقة معقدة، الآن يمكنها الزواج من حسن، على الرغم من أنها تمنت الموت بسبب ما عانته إلا أنها حاولت أن تفكر بطريقة إيجابية).

كان حسن ينظرُ عبر النافذة و هو يتأملُ بزوغ الصباح، شعرَّ بقدوم أحدهم فالتفت ليجد بيلا واقفةً تبتسمُ له، ركضت نحوه و هي تفردُ ذراعيها و تحضنه بشغف.

كانت دموعهما تلمع في عينيهما من الفرح و كأن أرواحهما المتعانقة كانت تطيرُ لتلامس حدود السماء.

*****

وقفت ليال مع زوجها مالك أمام منزل داليدا(شقيقة لياس)، فتحت داليدا الباب و هي ترتدي ثياباً سوداء بالكامل، ما إن رأتها حتى صرخت(ماذا تفعلين هنا أيتها اللعينة، ارحلي، عودي إلى الحياة التي تركتي أخي لأجلها لا أريدُ أن أراكِ).

كانت ستغلق الباب لكن مالك وضع يدهُ لإيقافها (أرجوكِ تريد الحديث معك، لو سمحتِ؟)

-داليدا ماذا هناك؟، هل حدث لأحدهم مكروه.

نظرت داليدا إليها باستياء: تتظاهرين بأن الأمر يهمك، لقد قُتل الياس، قُتل الرجل الذي أحبك و تركتيه لأجل أنانيتك أيتها هالنرجسية، هجر المدينة، ابتعد عن كل الناس، أصبح منعزلاً و كرس عمره لأجل ابنته، أنتِ حرمته الحياة و هو حي.

تداركت ليالي صدمتها: ابنتي!!!!، بيلا؟؟؟، ماذا حدث لبيلا.

-ابنتكِ!!!!، ابنتك هل تذكرينها حقاً!.

-أرجوكِ تكلمي.

-ابنتكِ أيتها الأم الحنون إما مقتولة أو أسيرة لا أحد يعلم عنها شيئاً.

كادت أن تسقط على الأرض فأمسكها مالك(أريدُ أن أرَ أي شيئ يخصها، صورتها، هل لديكِ صورتها؟).

-هل تظنين حقاً بأني سأحب ابنة المرأة التي دمرت حياة أخي، أنا لم أشعرُ بأنها ابنتهُ أساساً، لا أملك شيئاً يتعلق بها و الأفضل أن ترحلي الآن فابنتك و إن عادت لن تعود حية.

سندها مالك و أخذها من أمام المنزل بعد أن طردتها داليدا لمرات متتالية و غرقت بالبكاء(تركتُ ابنتي الأولى فسلبني الله ابنتي الثانية، إني أدفع ثمن ما فعلت، لقد عشت حياتي بحرية ظاهرة لكني بقيت سجينة ذنبي، لم تغب بيلا عن بالي يوماً، إن الندم يلتهمني، أنا نادمة نادمة، نادمة، نادمة).

*****

كانت سيلينا خارجةً من منزل زوجها مارةً بالحديقة، ظهرَ آدم بشكل مفاجئ أمامها، كان شاحب الوجه و أسفل عينيه يكاد يتلونُ بالأسود.

سيلينا: ما الذي جاء بك إلى هُنا؟، هل اشتقت لي؟؟.

آدم: افترقنا، هل أنتِ سعيدةٌ الآن!! ، هل ظننتِ بأنكِ ستفعلين ما فعلتهِ معي و مع رفيف و سأتركك و شأنك.

سيلينا(بسخرية): ماذا تقصدُ أيها الطفل الشقي، على أي حال فالتحدث في مكان آخر، زوجي سيكسرُ قلبه إن رآني وافقةً مع رجل غريب.

ظنت بأنهُ يمازحها لكن نظراتهُ الصلبة أربكتها، كان يرتدي القفازات وضعَ كفي يديه حول عنقها و قام بالضغط ليُخرج كل الغضب الذي في أعماقه ، حاولت إبعاده دون أن تتمكن من ذلك،لم يتركها إلى جثةً على الأرض، كان مصصماً على التخلص منها، ليس فقط انتقاماً لما حدث لأنها أصبحت على دراية بنقطة ضعفه، لم يكن واثقاً بأنها ستتركُ رفيف و شأنها.

عاد زوجها إلى المنزل رآها على الأرض و عيناها مفتوحتان نحو السماء ،اقترب منها مصدوماً و أخذ يضمها إلى صدره غير مصدقاً بأنها قد فارقت الحياة(حبيبتي

سيلينا، سيلينا من فعل بك هذا، أجيبيني أرجوكِ، تكلمي، سيلينااااااااا)، كان يحبه، ا على الرغم من شراسة طباعها لم يكن يرَ فيها إلا الجمال و الأنوثة.

*****

عادت علاقة رفيف بإياد كالسابق بعد صفعة الخذلان التي تلقتها من آدم، على الرغم من هذا لم تستطع نسيانه، لقد ترك شرخاً واسعاً في حياتها، كانت دوماً تنظرُ عبر النافذة لعلها تلمحه، تتمنى أن تراه مصادفة، و في كلِ نوبة حنين تخرجُ معطفه من خزانتها و تعانقه، كلما طُرق باب المنزل كانت تتمنى لو أنهُ الطارق.

توقفت سيارةٌ أمام المنزل و خرجَ منها رجلين، أخرجَ أحدهما المفتاح من جيبه و قام بفتح الباب، كانت رفيف تشاهدُ التلفاز، نهضت برعب عندما رأت غرباء في الداخل، نظرا إليها باستغراب و تحدث أحدهما(عفواً أليس هذا منزلُ السيدة كريمة!!).

-هذا منزلُ والدي و زوجتهُ هي كريمة، ماذا تريدان؟.

الرجل الآخر: يبدو أن هناك خطأ ما فهذا المنزل أصبح ملكاً لوالدنا لقد اشتراه من السيدة كريمة في زيارته الماضية إلى سوريا و معنا جميع الأوراق الثبوتية.

جلست رفيف في مكانها بائسة، فنظرا إلى بعضهما ثم تحدث أحدهما: يبدو أنك لا تعلمين بالأمر، أين هي السيدة كريمة لنحدثها؟؟.

-سافرت.

الرجل: حسناً، لا تقلقي يمكنك البقاء الآن، سنمهلك أسبوع كي تغادري.

طلبت رفيف إياد التواصل مع أحد الرجلين و قام بالتأكد من صحة الأوراق و أن المنزل مسجلٌ في سجلات الدولة على أنهُ ملكٌ لوالدهما.

كانت جالسةً بجواره في السيارة ليخبرها بما توصل إليه (أين سأذهبُ بنفسي!!، ما معي لا يكفي ثمناً لمنزل و حتى لو قمت بالاستئجار، إلى متى سأتمكنُ من الدفع، ما رأيك بأن نتزوج؟، ألست تحبني؟).

-أحبكِ نعم أحبك، لكني لا أفكرُ في الزواج الآن.

-لماذا؟؟؟، إن كنت تحبني ألا تملك رغبةٌ في العيش معي؟.

-سأكون صريحاً معك رفيف، لو كان الوضع كسابقته كان من الممكن أن أتزوجك، لكن الآن مستحيل، أهلي يتطلعون لنسب عائلة ثرية و مرموقة و أنتِ الآن لستِ

كذلك، لماذا تنظرين إلي بهذا الشكل، هل تريدين أن تحمليننني تكاليف إقامتكِ!!، أنا لستُ مسؤولاً عن هذا.

صفعتهُ بقوة(لا أريدُ منك شيئ يا وجه الحمار، هل تصدق بأن فتاة بجمالي ستحبُ شخصاً مثلك يخلو من الرجولة، أنا فقط أمضي معك الوقت لأن بيسان مشغولة في دراستها)، فتحت الباب لتنزل من السيارة ثم بصقت عليه قبل نزولها.

****

كانت من أطول الليالي في حياة زينب، ارتعشت أصابعها و هي تعيد مشاهدة الفيديو الخاص بحسن و بيلا على الفيس بوك للمرة الثالثة، تحاول تكذيب عينيها، أمسكت الموبايل بيدها المرتجفة و قامت بالاتصال بحسن لكن الخط كان مغلقاً، انتظرت حلول الصباح و هي تعدُ الثواني بدموعها و ما إن أشرقت الشمس حتى سارعت باتجاه منزله.

استيقظت أم حسن لترى حسن جالساً في الصالة مفعماً بالاحيوية و الفرحة عادت تتلألأ في عينيه كالسابق و أمامهُ فنجانين فارغين من القهوة، جلست بجواره: هل بيلا مستيقظة؟.

حسن: كانت مستيقظة لكنها خلدت الآن للنوم فهي لا تزال متعبة.

أم حسن(بقلق): ماذا سيحدثُ الآن؟؟، ماذا عن زينب؟؟.

طُرقَ الباب فتوجهت أم حسن لفتحه ، لتجد زينب تبدو بائسة و ما إن طلبت منها الدخول حتى دخلت بغضب و بدأت تخاطب حسن و هي تبكي: ما سرُ هذه الفتاة التي في منزلكم؟؟؟ لماذا أخفيتم الحقيقة!!!، هل حقاً هي حبيبتك؟؟؟ ، تحدث ما الأمر.

أم حسن: اهدئي يا بنتي من أين أتيت بهذا الكلام؟؟؟.

زينب: صورهم تملأ مواقع التواصل، لقد كان يعانقها و يبكي ، بدى كشخصٍ لا أعرفه، هل الفظاظة خُلقت لي فقط!!، هل...

اقترب منها حسن و هو خجلٌ من نفسه ، خلع محبس الخطوبة بهدوء و وضعهُ في يدها(أرجو أن تسامحيني ، إنتِ فتاةٌ لا تعوض، لكنها في قلبي منذُ البداية).

****

كان آدم ماراً بسيارته من أمام منزل تامر في حين شاهد إياد يخرجُ من المنزل، أوقف سيارته و قام بسؤال تامر قبل إلقاء التحية حتى (ما علاقتك بهذا الشاب؟؟؟).

-أيُ شاب.

-لا تتظاهر بالغباء، الشاب الذي خرج لتوه ما علاقتك به؟؟؟.

-إنهُ يعملُ معنا لكنهُ يفضل أن يبقى خلف الكواليس.

-ما علاقتهُ بخطف الفتاة التي تشاجرنا من أجلها؟؟.

تذكرَّ تامر كلمات إياد حينها (إنها فتاة ثرية، وحيدةٌ لوالدها، سيدفعُ أي مبلغٍ تتخيله لأجلها، لكن ليكن لديك العلم منذ البداية أريد 50% من المبلغ).

كانت رفيف تمشطُ شعرها المبلول بعد أن خرجت من غرفة الاستحمام، توجهت نحو الباب لتفتحهُ.

كان آدم واقفاً كأنهُ غريب، لا يدري من أين سيبدأُ الكلام، خشي على قلبها من ما سيقوله، فتحت الباب و لمعت عيناهما عندما تعانقت النظرات.

آدم: أعلمُ بأن رؤيتي تزعجكِ، لكن كان يجبُ بأن ألقاكِ، الأمرُ مهم.

-أدخل.

جلسا في الصالة و تابعت تسريح شعرها في انتظار ما سيقوله بينما يتأملها بحسرة(اممم ما الأمر؟).

-لا أعلمُ إن كنتِ ستصدقين، لا أقصدُ إفساد علاقتك بذاك الشاب، أقصدُ إياد، لكن علي أن أحذركِ منه، إنهُ لا يحبكِ.

-ما الجديد؟؟ أعلمُ بأنهُ لا يحبني.

-هو من أرشد الشاب الذي كان معي إليكِ لنخطفكِ، علمتُ هذا مجدداً و شعرتُ أن علي إخبارك، هل صدقتني؟.

-لم يعد يهم، إنهُ لا يعنيني.

نهضَ من مكانه ليغادر، فأمسكت بيده(يمكنك البقاء إن رغبت، سأسافرُ بعد يومين إلى القرية و ربما لن أراك مرة أخرى، سأقيمُ هناك).

عاد إلى مكانه (ماذا حدث؟ ألم تخبريني بأنك لا تحبين القرية و عمتك لا تحبك؟).

-صحيح، لكن علي مغادرة المنزل، جاء مالكيه، اكتشفتُ مجدداً أن كريمة قد باعتهُ قبل سفرها.

-ما رأيك أن أتدبر لك منزلٌ قريب من هنا؟، سأتولى دفع أجاره، لن تري وجهي إن كانت رؤيتي تزعجك.

-لماذا ستفعلُ هذا؟.

-لا أريدُك أن تبتعدي، حتى لو لم أراكِ سيكون قلبي مطمئنٌ بأنك قريبة، سيبقى في قلبي أمل بأن ألقاكِ حتى لو صدفة، أملٌ بأن يتم جبر ما تم كسرهُ بيننا.

رفيف(تضحك): لقد قمتُ اليوم بطلب يدِ إياد، تخيل الأمر، لم أكن جادة و بالأصح لم أفكر فيما قلتهُ كنتُ في حالة صدمة بأن علي مغادرة كل شيئ هنا، رغبتُ في معرفة ردة فعله حيّال هذا.

كان آدم يبتسمُ تلقائياً عندما يرى ضحكتها(ماذا قال لكِ؟).

أخذت تقلدُ ما فعلهُ إياد بسخرية: رفعَ وجهه عالياً و أخبرني بأنه إن فكر بالزواج سيتزوج من فتاة ثرية، صدّق نفسه و صدق بأني أحبهُ، لكني لم أبقَ صامتة صفعتهُ حتى كاد رأسهُ يلتصقُ بالزجاج و وبختهُ حتى أنزل وجهه المرفوع إلى صدره ثم بصقت عليه و غادرت.

اقترب آدم و جلس بجوارها ليكون قريباً منها أكثر(لمَ كنتِ تخرجين برفقتهُ إذاً؟).

رفيف(بغصة): لا أدري، أردتُ أن أنسَ ، لكني لم أستطع، كان كل شيئ يذكرني بالأيام التي قضيناها معاً.

-في أول مرة دخلتُ فيها إلى المنزل لم أكن أحملُ في قلبي إلا الحب، كل ما حدث لم يكن متوقعاً، لم أكن أرغبُ إلا في أن أكون قريباً منكِ، كنتُ أكرهُ كل شيئ و إلى الآن أنا أكره كل شيئ إلا أنتِ، أنتِ عالمي الذي لا أريدُ أن أعيش في سواه، انسِ ما حدث (قام بتقبيل يدها و هو ينظرُ إلى عينيها) هل تقبلين الزواج مني؟.

ارتبكت و انقبض قلبها ثم انشرح ، قام بضمها إلى صدره بحنان و همس في أذنها(ألن تقولي شيئاً ؟؟).

-أحبك.

حلَّ الصباح، كانت لا تزال نائمة بينما يقوم آدم بتحضير الإفطار عندما طُرق باب المنزل، فتح الباب ليجد رجلاً غريباً (صباح الخير، أنا الطبيب معاذ صديق نضال رحمه الله هل بإمكاني أن أقابل ابنته رفيف).

دخلَ إلى الصالة بينما قام آدم بإيقاظ رفيف التي سرعان ما غسلت وجهها و خرجت لترى ما الأمر، و بعد إلقاء التحية، أعطاها رسالة ورقية و هو يقول (هذه الرسالة أعطاني إياها والدكِ قبل دخوله للعمليات، طلب مني أن أعطيها إياكِ باليد إن حصل له مكروه و لم تسمح لي الفرصة حينها بالمجيئ إلى سوريا).

سألتهُ رفيف عن تفاصيل الحادثة و كان الحزنُ يرسمُ لوحة على وجهها أثناء حديثه بينما يمسكُ آدم يدها مواسياً.

رافقهُ آدم إلى الباب الخارجي بينما فتحت رفيف الرسالة بشوق، كان قد شرحَ لها فيها ما فعلهُ بطفولتها و أن والدتها لا تزالُ حية، طلب منها أن تبحث عنها و تطلب منها أن تغفر له على ما فعله، كان قلبها يضخُ الدم بعنف بعدما قرأته، كما ذكر لها أنه سجل كل شيئ باسمها ، و في نهاية الرسالة ذكر لها اسم والدتها الكامل .

لم تصدق أن والدها قد فعل ما فعله و أخفى عنها الأمر كل هذه السنين، نهضت ببطء و دخلت إلى غرفتها لتحضر حاسبها المحمول بينما أخذ آدم يقرأ الرسالة ليعلم ما الذي جعل ملامح رفيف غير واضحة التعابير بحيث لا يستطيع أحد تفسير ما في داخلها.

****

كانت ليال تقيمُ مع زوجها مالك و ابنيها التوأم (جود و جاد) في قصر كبير فاخر في العاصمة اللبنانية بيروت، كان مالك يملكُ مطعماً فخماً أما هي كانت تعملُ في مجال تنظيم الحفلات بالإضافة للكتابة.

كانت ذاهبة لحفل توقيع روايتها الأولى في معرض بيروت للكتاب، و هي بقمة الأناقة و الجمال.

كانت تقوم بتوقيع روايتها لبعض القراء في حين كان ينتظرُ أدم و رفيف قدوم دورهما ليقتربا منها و لما اقتربا قامت رفيف بإعطائها صورتها و هي صغيرة لتخبرها بأنها ابنتها.

نهضت ليال من مكانها و الكلمات بالكاد تخرجُ من فمها (أنتِ!!!!!!....).

أشارت رفيف برأسها علامة الإيجاب، فاقتربت منها ليال و عانقتها كأنها أرادت أن تروي ظمأ سنين من الشوق.

سرعان ما انشهرت رواية ليال بسبب الموقف الفريد الذي حدث أثناء حفل التوقيع ، أقامت لكل من رفيف و آدم حفل زفاف ضخم بعد أن طلبت من أشهر مصممي الأزياء في المنطقة تصميم فستان زفاف مميز و دعت إلى الحفل شخصيات مرموقة.

أقامت رفيف مع آدم في قصر عائلة والدتها كان الجميع سعداء بوجودهما بينهم، التحقت رفيف مجدداً بالجامعة لتكمل دراستها في حين أصبح آدم يساعدُ مالك في إدارة المطعم، إستطاع الحب أن يضيئ النور في قلب آدم المنطفئ، كان يشعرُ بالسلام الداخلي، خَلَعَ ما كان عليه كأنه يخلعُ سترةً بالية، أحياهُ الحب مجدداً ليصبح شخصاً ودوداً ، كان يشعرُ بالراحة في كل صباح يفتحُ فيه عينيه ليرى رفيف نائمة بجواره كالملائكة، و يدخلُ الفرحُ إلى قلبه في كلِّ حفلة يصنعها المحبين ليسعدوا

أحبائهم في المطعم الذي يعملُ فيه، أما بيلا كانت تعيشُ براحة و هدوء بسبب حب حسن الفائق لها، أصبح زوجها كان يخشى عليها حتى من نفسه، ألغى قنوات الأخبار و منع وجود أي شيئ من الممكن أن يحيي داخلها الألم الذي عانته، لم يكن لديها أي رغبة في البحث للتعرف إلى والدتها بعد أن تخلت عنها، استنتجت بعد كل تلك السنين السبب الذي كان وراء حزن والدها و شروده الدائم(لقد عاش مكسور الفؤاد، لا أرغبُ في أن أعلم أي شيئ عن تلك المرأة القاسية)، كانت تجلس على السرير بعد أن أيقظها كابوس موجع،

نهض حسن من مكانه بعد أن كان نائماً وضمها إليه كما كان يفعلُ في كل مرة تسوء حالتها النفسية بسبب ذكريات الماضي همس في أذنها (أحبك، لا بأس، فالنكمل نومنا) جعلها تستلقي بين أحضانه و هو يداعب شعرها حتى غفت عينيها و نامت من جديد.

*****

(يمكنكم الإمساك بي لكن ما مِن أحدٍ بوسعه أن يلتقط أفكاري، إذا أعجبتكم الرواية شكراً و إن لم تعجبكم ف sorry سامحوني باليز..... إدعموووووووني(بصوت أم كلثوم لما غنت إسمعوني).

كرهتُ الواقع، أحتاج للقليل من الخيال، في البداية تبدو الخيبة صادمة، تجعلُ أرواحنا تقفُ مذهولة من هوية الطاعنين، نعتاد موت الأجزاء ، و الجرح العميق سرعان يصبحُ ندبة فتغدو الصدمة جزءاً من شخصيتنا ..... عقدة نفسية يراها من حولنا ولا نبصرها.

*****

///يُدمرُنا الوطن بينما نبنيه ///

الأعمال السابقة:

الحب على شرفات الموت

ابق حياً مهما كلف الأمر

الزيف(بدل مفقود)

بعيداً عن النسيان